طه عبد الباقي سرور

التصوف الإسلامي

والإمام الشعراني

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

مطبعة نهضة مصر بالفجالة

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الطبعة الثانية

منذ خمسة عشر عاماً ، وهذا القلم ينطلق على أجنحة من هدى الله وتوفيقه ، ليحلق فى سموات التصوف وآفاقه ، يقتبس من كل نجم ، أبهى أشعته ، ومن كل زهر أطهر عبيره ، ومن كل لحن أسمى أنغامه ، ويمزج الطهر بالخير ، والنور بالعطر ، والشعاع باللحن ، والجمال بالإيمان ، ثم يتجلى رضاء الله ، فتتحول كل هذه المبهجات ، إلى كلمات مؤمنات مشرقات ، تضج بالحياة ، وتنبض بالقوة ، وتقدم زاداً روحياً ، للقلوب المتفتحة ، ونغماً علوياً للأرواح العابدة ، ومنهاجا وضاء هادياً لخير أمة أخرجت للناس .

منذ خمسة عشر عاماً ، كان مولد هذه الدراسات الصوفية التى تتابعت أجزاؤها ، وتماسكت حلقاتها ، واتخذت لبناتها ، فى سبيل السمو والشموخ بالصرح الصوفى الذى تترقبه القلوب العابدة ، وتأمل أن يكون حصناً من حصون الإيمان ، ونقطة ارتكاز قوية للوثبة الإسلامية الكبرى .

وشاءت عناية الله - ونحن أرقاء هذه العناية - أن يستقبل العالم الإسلامى هذه الدراسات استقباله لأضواء الفجر ، وقطرات الغيث ، فنفدت طبعاتها سراعا ، ولا يزال الحب يطالب بها ، ويلح عليها ، ويسر الله جل جلاله . فأعيدت طبعات كتابى (الغزالى) و (محيى الدين) وها هى ذى الطبعة الثانية من « التصوف الإسلامى . والإمام الشعرانى » محررة منقحة مضافا إليها زيادات وتعقيبات لم تتيسر لنا فى الطبعة الأولى ، نقدمها لعشاق التصوف والروحانية الإسلامية ، شاكرين فخورين ، وما توفيقنا إلا بالله رب العالمين.

وهذا الكتاب هو واسطة العقد من هذه الدراسات فقد تميز بمناهج كاملة

للتصوف وأهدافه ورسالاته، وما يحمل بين أجنحته من خير وهدى ورحمة للمؤمنين.

كما عنى عناية كبرى بتنقية التصوف من كل ما نسب إليه، ودس عليه من مذاهب فلسفية، ودجليات شعبية، مما امتلأت به حقائب التاريخ وفاضت به صحف المغرضين ولحونهم.

إنه لصورة كاملة للثروة الصوفية الضخمة، صورة صادقة لأقوى روحانية عالمية مشت بين الناس، بالسلام والجمال، والخير والحب، واليقين، المشرق المبين.

ولقد جاءت هذه الطبعة الجديدة في ميقاتها الذي أراده الله، جاءت لتكون رداً حاسما على هؤلاء الذين أمسكوا بمزمار أبليس وراحوا يريقون السحر الخادع المضلل هنا وهناك، لينالوا من التصوف والمتصوفة، وليتسللوا إلى منائر الإيمان محطمين مدمرين.

هؤلاء الذين ملؤا أفواههم بكلمات كأنها رؤوس الشياطين غلظة وبشاعة، محاولين أن ينقضوا الصرح من أساسه، ويحطموا المحراب على على الساجدين العابدين.

لقد أمسكوا وحدهم برحمة الله، ويبيعون الجنة لأنصارهم، واللظى والكفر والمروق لغير الساجدين على عتبات من يسجدون لهم، كل شيء بدعة؟ وكل شيء ضلالة؟ وكل تسبيحة جحود، وكل تكبيرة مروق، إلا تكبيراتهم، حيث يحلو لهم التكبير والتهليل.

ولن نقف طويلا مع خصوم التصوف التاريخيين، لقد صاحوا حتى شقت حناجرهم عبر القرون، ثم ذهبوا قبضة من رماد، وصيحة من شيطان، ذهبوا إلى الفناء. وبقي التصوف بمنابره ومنائره، ومواجيده ولحونه، يرشد الناس إلى ربهم ويأخذ بأيديهم إلى الحياة الصاعدة الطاهرة.

ولست أدرى كيف تكون الحياة ، لو خلت من ذلك الإيمان الصوفى القوى الحار ، الذى يملأ سموات الوجود بألحان الحب ، وموسيقى السلام ، ووثبات الأرواح ، وأشواق القلوب .

إن المتصوفة لعمالقة بين أقزام ، عمالقة فى جهادهم لأنفسهم ، عمالقة فى أسلوب حياتهم ، وألوان تعبداتهم ، ومثالياتهم المجنحة المتعالية .

وحسب النهج الصوفى أن الله جل جلاله خلده فى قرآنه خلوداً لا يدنو منه الفناء .

« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطا » .

تلك هى حجتنا ، وهذه آيتنا .

وبعد . . . ترى هل ذهبنا بعيدا ، ونحن نقدم كتابنا ، إن الدفاع عن التصوف لهدف من أكبر أهدافنا ، وعلى هذا الضوء تكون تلك الكلمات مقدمة طبيعية بين يدى « التصوف الإسلامى ، والامام الشعرانى) .

وتبارك رب العزة القائل « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين »

طه عبد الباقى سرور

١٩٥٥/١٢/٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الأفق الأعلى

الشعرانى هو آخر نجم بزغ فى الأفق الأعلى ، الافق الأعلى للتفكير الاسلامى ، والنهج الصوفى .

ولقد درج التصوف مع الاسلام منذ يومه الأول ، أفقا خاصا للقلوب المتصدعة من خشية الله ، المتفجرة الينابيع بحبه ونجواه وسماءا مجلوة للعقول السابحة فى عجائب الكون ، المفكرة فى ملكوت السموات والأرض ، وما فيهما من آيات للموقنين ، العقول التى أودع فيها المهيمن نور الحكمة ورزقها جلاء البصيرة ، وفتوحات العبادة والطاعة ، واتقوا الله ويعلمكم الله .

والقلب المتصدع العابد . والعقل المفكر المؤمن ، والنفس المطمئنة الذاكرة المحبة، يؤلفون معا ، النفحة العلوية ، المعلمة الملهمة، التى ترتفع بالإنسان وترتفع حتى يكون من الملهمين الربانيين المندرجين تحت أفق قوله تعالى (عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) .

ان شئت فسم تلك المثاليات بالتصوف ، أو بالأفق الأعلى ، وان أحببت فليكن عنوانها نورانية العبودية ، أو الروحانية الاسلامية .

فالتصوف هو جماع تلك المثاليات ، وهو الذى يرسم الأفق الأعلى لمن يتسامى ، الأفق الأعلى المشرق بالروحانية الاسلامية ، الأفق الأعلى الذى تتجلى فيه العبودية الكاملة بأنوارها والهاماتها .

وسبيل التصوف إلى تلك الآفاق ، هو الاستعداد الفطرى ، الممثل فى الحب الإلهى ، ثم الذكر الدائم ، والخلق الكامل ، والتطوع المتواصل ، لما فوق الفرائض والنوافل .

وفى الحديث القدسى « فلا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وان سألنى لأعطينه ولأن استعاذنى لأعيذنه ».

تلك هى مرتبة النوافل وما أدراك ما هى . ولكن فوقها مرتبة التطوع الدائم ، وهى جعل الحياة كلها ذكرا وعبادة « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحارهم يستغفرون » «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » .

وافق تلك المرتبة ، مرتبة العبودية الكاملة الأثر المشهور « عبدى أطعنى تكن ربانيا تقول للشىء كن فيكون » .

وهذا الأفق جبار المرتقى لا يذلل لكل طالب ، فلا يطيقه ولا يصبر عليه إلا صفوة من عباد الرحمن الذين اجتباهم واصطفاهم ، وجعلهم أئمة وهداة وورثة لأنوار النبوة المحمدية « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

وليس ما نقول ضربا من الأشواق الوجدانية والسبحات الخيالية ، (فقد روى أنس رضى الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله رجل شاب من الأنصار فقال له النبى صلوات الله عليه ، كيف أصبحت يا حارثة ، قال : أصبحت مؤمنا بالله حقا . قال انظر ما تقول فان لكل قول حقيقة ، قال : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى فكأنى بعرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها قال : أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان فى قلبه » .

وفى رواية أخرى عن محمد بن الحسن « لكأنى أنظر إلى ربى عز وجل فوق عرشه . يقضى بين خلقه » .

ذلك عبد نور الله الإيمان فى قلبه — وما أجمل وأحلى هـــذا التعبير النبوى فعاش فى الأفق الأعلى ، فتجلت عليه روح الاسلام ، فحاق بأجنحة قلبه النورانية حتى رأى الملكوت الاسنى فشاهد النــار والجنة والعرش ثم ارتقى فرأى الله جل جلاله وهو يقضى بين خلقه ، رأى وشاهد تلك الآيات بعين الموقنيين ، عين الايمان القلبى ، وهو يخطر بقدميه على السيار الأرضى .

وقصة الخضر ، العبد الذى ارتقى فاهتدى ، فآتاه الله من لدنه علماً باطنياً ربانياً معجزاً لا يسامقه علم ولا تدانيه معرفة .

ذلك هو التصوف الذى كان له أكبر الأثر فى توجيهات العالم الإسلامى الفكرية والتعبدية ، بل أكبر الأثر فى فتوحاته وانتصاراته العالمية، وفى رسم أهدافه ومثله العليا الاجتماعية والخلقية والروحية .

ذلك هو التصوف الذى استحال إلى شخصيات وبطولات ملهمة عبقرية تتفاعل مع الجماهير وتقودها فتهديها وترشدها ، واستحالت تلك البطولات إلى قوة روحية زاحفة مشرقة بالنور فياضة بالإيمان ، تطير بالوية الاسلام وتزكى شعلته وتحفظ مثاليته ، وتفتح له الآفاق فى شتى الميادين العقلية والعلمية .

وهذا هو التفسير الصادق لهذا الحشد الخالد من الشخصيات العجيبة والبطولات الفذة التى حفل بها تاريخ التصوف ، آيات معجزات لا تسمو عبقريات الدنيا إليهم ، ومثاليات تخجل حياتنا حين نتحدث عنهم ، وقوة روحية غلابة ملهمة لم يعرفها تاريخ الإيمان العالمى لسواهم .

ولا بد لنا حينما نتحدث عنهم من أن نعقد الصلات بينهم وبين الروح

الصوفى الذى يعد مصدر هذه الطاقة ومشعل نورها وصانع أجنحتها .

ومقياس عظمة كل عبقرية من تلك العبقريات اللدنية هو استعدادها للترقى فى المعارج العلوية ، وطاقتها على تحمل العبودية الكاملة . والحب الإلهى الفاتح لباب الفيض الربانى .

والباب الموصل لتلك المعارج ، هو الاقتداء الكامل والاحتذاء الصادق الصارم ، بالمثل الأعلى للإنسان الكامل ، بالنبوة المحمدية صلوات الله وسلامه على صاحبها .

تلك النبوة التى تلقت الفيض كله كاملا ، واستوعبته واطاقت تلقيه وصبرت عليه وعاشت له وبه فكانت رمزه الأعلى ، وكانت أفقه الأسمى ، وكانت معينه الزاخر الفياض ، الذى تكفى قطرة منه لصوغ عبقرى ملهم من هؤلاء العباقرة الملهمين .

العباقرة الملهمين الذين عاشوا تحت أفق خاتم الأنبياء وسيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم كل بقدر ما فيه من استعداد للتلقى واستعداد للاستيعاب واستعداد للصبر والتحمل واستعداد للفيض والاشراق .

وهذا هو السر فى فهم المتصوفة واجلالهم للنبوة المحمدية . فهماواجلالا لا أغالى إذا قلت أنه يفوق مثيله فى قلب كل محمدى .

لقد آمنوا بأن محمداً رسول الله ، هو المفتاح الربانى للأبواب الإلهية ، حيث تهطل الفيوضات والفتوحات ، وإن السر كل السر فى المفتاح والباب ، فكل من حاد عن الطريق السوى ، طريق الهدى المحمدى ، فقد المفتاح وتوارى عنه الباب ، فحرم من الفتح والعطاء وضل سواء السبيل .

تلك هى المدرسة التى أنجبت عباقرة التصوف ، مدرسة الاحتذاء والاقتداء بالسنن المحمدى ، مدرسة العبودية الكاملة ، ولقد كانت تلك المدرسة ولا تزال ، قلب الاسلام وروحه وأفقه الأعلى .

وتلك المدرسة المحمدية ، مدرسة التفكر فى آيات الله ، والتعبد المتواصل فى محاريب الحياة ، وكل ما فى الحياة محاريب ومساجد للمؤمنين الموقنين . مدرسة الحب الإلهى بما فيها من إشراق وإلهام وفيوضات ، هى التى أنجبت أبا المواهب ، الزعيم العملاق عبد الوهاب الشعرانى .

والشعرانى عجيبة ضخمة من عجائب تلك المدرسة . أو إن شئت فعجيبة من عجائب التصوف وصنيعة من صنائع الإيمان ، ولطيفة من لطائف التقوى ، وقبس من أقباس النور المفاض على الأرواح المتطهرة العابدة .

فدعك من البحث عن مدرسته العلمية ، ودعك من البحث عن مناهجه ودراساته ، فقد كونته إلهامات القلب ، وسبحات الروح ، وأبرزته الطاعة والخلوة ، والمحبة والحضرة ، ورعته وحبته وزكته ، عناية الله ورضاه .

وليس معنى هذا أن الشعرانى لم يكن عالماً فحلا ودارساً مبرزاً على معاصريه فى علومهم ومعارفهم ، وإنما نريد أن نقول أن تلك العملاقية العلمية التى ارتفعت به منارا ، فنت فى نوره علوم معاصريه ، وتضاءلت حياله معارف مصاوليه ومجادليه ،كان سرها أنها من الأفق الأعلى ، من النبع الربانى الذى لا تفنى إلهاماته ولا تنضب إمداداته .

وحسب الشعرانى أن رجال الاستشراق عكفوا على كتبه يستنطقونها ويتلمسون أسرارها ويقلبونها على أوجه شكوكهم الملحة ، ويعرضونها على موازينهم القاسية ، وخرجوا بعد الشوط الطويل يعنون إلهامات أمام العملاق الضخم الشامخ . ويطلقون القول معترفين فى وضوح وصراحة بأن الشعرانى أعجوبة من أعاجيب العباقرة المتصوفين ؛ أعجوبة لا يكاد تاريخ الاسلام يعرف لها مثيلا .

يقول المستشرق « فولرز » (إن الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية صوفيا من الطراز الأول ، وكان فى الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحاً يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً ، وإن كتبه التى تجاوزت السبعين عداً من بينها أربعة وعشرين كتاباً تعتبر ابتكاراً محضاً أصيلا لم يسبق إليه أبداً ولم يعالج فكرتها أحد قبله .)

ويقول العلامة « ماكدونالد » (إن الشعرانى كان رجلا دراكا نفاذاً مخلصاً واسع العقل) ويقول فى موضع آخر « إنه كان يجمع بين أعظم المميزات وإنه كان مشرعا ذا أصالة ونفاذ . وكان عقله من العقول النادرة فى الفقه بعد القرون الثلاثه الأولى فى الإسلام ، وإنه رجل أخلاق تهزه أنفة عالية) .

ويقول المستشرق – نيكلسون – عنه « إنه أعظم صوفى عرفه العالم الإسلامى كله وإنه منذ فتح المغول العالم الاسلامى . ركدت الحركة الفكرية فى الاسلام واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد . فلا نجد بوادر انطلاق أو انتاج خصب منتج أو أى أثر لتفكير أصيل وضىء . باستثناء شخصيتين شاذتين هما ابن خلدون المؤرخ ، والشعرانى الصوفى ، وكان الشعرانى بالذات مفكراً مبدعاً أصيلا ، أثر تأثيراً واسع المدى فى العالم الاسلامى ، يشهد به إلى يومنا إلحاح القراءة إلحاحاً متواصلا فى طلب مؤلفاته » .

تلك هى شهادات العلماء العالميين الذين وزنوا الشعرانى بموازينهم العلمية الدنيوية ، لا بميزان النورانية الصوفية ، ومع هذا فقد ارتفعت به موازينهم إلى القمة المنفردة شموخا وخلودا .

ولنعد إلى الأفق الأعلى ، أفق التصوف الوعر العسير المرتقى ، لقد صعد الشعرانى فى معارجه ، وتسنم الذروة فى محرابه ، وتزعم وساد فى آفاقه .

والصعود فى تلك المعارج ، وتسنم الذروة والزعامة والسيادة الصوفية ؛

قد أتيحت من قبل الشعرانى لغير قليل فى هذا الأفق .

ولكن الشعرانى كان آخر نجم فى ذلك الأفق ، آخر نجم بحسب الترتيب الزمنى ، ولهذا انفرد وحده بخوض أعنف معارك التصوف فى أحلك الأزمنة وأقساها وأشدها .

وحسبه أنه حارب كل معاصريه حتى المتصوفة ، المتصوفة إسما لا معنى فلقد فقد التصوف فى عصره حلاه وعلاه .

حارب وحده ، وانتصر وحده ، وارتقى الذروة وحيداً ، وأقام للتصوف دولة عاشت طوال حياته عزيزة غلابة .

حارب وانتصر فى أشد العصور الاسلامية رهبة وظلاما وجموداوجهلا فاطلق آية النور المبصرة التى تمحو الظلمات ، وأعاد للفكر الاسلامى قوته وهداه ، وأعاد إلى القلوب القلقة إيمانها وتقواها .

كانت الأمة الاسلامية قبيل عهده تعيش فى ظلمات بعلو بعضها بعضاً ، ظلمات خارجية تمثلت فى أمواج بربرية من جنود المغول والتتر قادمة من المشرق تجتث الشعوب الاسلامية من أساسها وتدمر حضارتها وتطفىء شعلتها وأمواج صليبية قادمة من المغرب ، فوارة بالغضب والتعصب مشرعة السيف بالحقد والبغضاء .

وفى الداخل كانت الظلمات أشد وأقسى ، كان الركود الروحى هو العلة الكبرى ، فان التسوية التى قام بها الغزالى بين المتصوفة والفقهاء كانت قد أهدرت من جانب الأشاعرة الذين سلوا سيف الاجماع المصطنع ضد المفكرين تارة وضد المتصوفة تارة أخرى .

حتى إن تاريخ الفكر الاسلامى بعد الغزالى منذ القرن السادس الهجرى هو تاريخ النزاع المشبوب بين المتصوفة والأشاعرة ، من جهة و بين المتصوفة

ورجال الحديث من جهة أخرى ، وأعقب هذا الصراع العنيف هبوط فكرى عام فى قوام جميعاً ، كما تنتج المعارك الحربية الضعف والانهيار فى القوات المتحاربة ، وتحمل العالم الاسلامى بأسره وزر تلك المعارك الجدلية الهوجاء جهلا وجموداً ، وبلادة ذهنية ، وخموداً روحياً قاتلا .

وجاء ابن تيمية فى أواخر القرن الثانى عشر للميلاد فى قعقعة وزوبعة ، يملأ الدنيا صياحاً ضد كل مفكر سواء . ويخص بحملته الكبرى ومعركته العظمى التصوف والمتصوفة .

نادى ابن تيمية بالمعنى الحرفى للقرآن ولم يقبل فى الآيات المجسمة تأويلا وفسق كل المذاهب الاسلامية فى علم الكلام ، وحرم الاجتهاد على الناس جميعاً وأباحه لنفسه ، فحدد صفات الله تعالى حسب رأيه . وحرم زيارة الأولياء وقراءة القرآن لهم ، وتغالى فنادى ، بأن من يزور قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه تقرباً أو طلباً للشفاعة فهو ضال مبتدع .

وعاش ابن تيمية حليف السجون ومات ، سجيناً . ولكنه كان قد اطلق صيحة ملتهبة متوقدة الجمر وتناول اتباعه كلماته فضخموها وألبسوها أردية فضفاضة زادت نار الحرب وقوداً وضراماً ، حتى امتلأت شوارع القاهرة بالصراع والدماء بين اتباعه والمتصوفة ، كما يقول الجبرتى .

وكان السبب الأكبر فى هذا الجدل والحوار ، وفى تلك الخصومات المجنونة الرعناء ، هو أن النهضة الاسلامية العلمية كانت قد خمدت جذوتها وخبأ ضوؤها وأخذت البدع والخرافات والأساطير تنطلق فى أفق العالم الاسلامى .

لقد ذبل المشعل الذى ظل يتقد عشرة قرون والذى أنارت أشعته الفكرية أرجاء الوجود ، ذبل بل فنى مخنوقاً فى الظلمات .

ويكفى لتصوير ظلمات هذا العصر . ان التصوف وهو قلب الاسلام النابض . أصبح فى تلك الصورة المهلهلة التى رسمها الشعرانى بقلمه .

« كان التصوف حالا فصار كارا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان استتارا فصار اشتهارا ، وكان إتباعا للسلف فصار إتباعا للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور . وكان تعففا فصار تملقا ، وكان تجريدا فصار ثريدا »

يكفى لتصوير هذا العصر المظلم . أن الشعرانى يحدثنا عن رجل يسمى الشيخ شعبان المجذوب كان يجلس على كراسى المساجد أيام الجمع وغيرها . ويقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم . وقد سمعه الشعرانى يقول على طريقة قراءة القرآن «وما أنتم فى تصديق هود بصادقين . ولقد أرسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين » .

ثم يعقب على هذا قائلا « اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان ، ويعلق الشعرانى قائلا « ولم اسمع أحدا ينكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدون رؤيته عيدا عندهم[١] .

وكان زميله إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ويخطب الناس قائلا . السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون ، والحمد لله رب العالمين ، فيحصل للناس بسط عظيم كما يقول الشعرانى[٢] .

فى تلك الظلمات وفى هذا الجو الزاخر بالجهالات ، بزغ نجم الشعرانى متلألا مشرقا كأنه ظاهرة كونية جاءت فى موعدها المحدد ووقتها المرسوم .

جاء كموجة صوفية أطلقها البحر الأعظم لتجتث كل شيء من جذوره ثم تنحصر فتملأ الدنيا خصباً ونماء وبركة ونوراً .

---

(١) الطبقات الكبرى ج (٢) ص ١٦٠

(٢) « « ج (٢) ص ١٢٤

وهبه الله ومن عليه ، فكان كما صاغته عناية الله ورحمته ، وكان أينما شرع قلمه تحف به الهبات والمنن فيأتى كلمه زخارا باليقين والهدى .

جاء مكافحا مصلحا ، وزعيما قائداً ، ومرشداً هادياً ، فتمثلت فيه خصائص تلك الصفات فكان كما لقب ، أبا المواهب .

حرر التصوف من الأساطير والبدع ، وجلاه محمديا قرآنيا ، كما أراده الله لعباده ، قوة روحية محلقة فى الأفق الأعلى .

وحرر الفقه من جموده وتزمته فكان الأصولى الألمعى الذى مزج الفقه بحرارة الإيمان فأنقذه من الجفوة والجفاف . وحببه إلى الجماهير ، يوم جعله لا مجرد أحكام شرعية فحسب ، بل حقائق روحية مشرقة .

وحرر علم الكلام — التوحيد — من نزوات المجسدين وأهواء المجادلين ، وأعاده إلى نوره ورونقه الإيمانى الذى عرفه واهتدى به الصدر الأول والتابعون .

وأنقذ الأمه الإسلامية من الجدل والحوار ، والجرى وراء الأوهام والخيالات ، وردها إلى النبع الصافى والعمل الخالص لوجه الله .

ولم ينسه جهاده الدينى ، زعامته الشعبية فكان المصلح الاجتماعى المدافع عن الفقير والمسكين والضعيف ، القائم فى وجه الولاة والحكام يرفع كلمة الحق وينتزع حقوق الضعفاء من الأقوياء .

ووقفت الدنيا فى عهده ترقب كلمة من فيه ، أو إشارة من يده ، فهو الملجأ والملاذ للمظلوم ينشد حقاً ، وللظالم يطلب رحمة ، وهو المرشد الهادى إلى حقائق الإيمان ولطائف العقائد ، ومشكلات الفكر والحياة ، وهو الزعيم الحبيب الذى إذا غضب ، اضطربت لغضبه قلوب الملايين .

وهو بعد هذا وذاك ، مؤرخ التصوف والمتصوفه ، وخليفة الغزالى

الأوحد على الجوانب الاخلاقية والاجتماعية والتعبدية فى الاسلام ، والمدافع الأكبر عن الشيخ الأكبر محي الدين بن عربى فيلسوف التصوف العبقرى ، ومحي عالم الزوايا التى يعمرها القرآن والتى يسمع فيها ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار .

وقد روى عن النبي صلوات الله وسلامه عليه ، عن ربه عز وجل « فى الحديث القدسى » إن أوليائى من عبادى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم .

تلك علامة المتصوفة ، وآية الشعرانى ، وفى الخالدين من يذكر بذكر الله ، ومن يذكر الله يذكره . . .

نشأته وحياته

أسرته :

إلى الدوحة العلوية الهاشمية يرتفع نسب الشعرانى ، فجده الأعلى هو محمد ابن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

وقد هاجر أجداده إلى المغرب الأقصى فى الموجات المهاجرة من البيت العلوى التى اختارت الأطراف النائية من الإمبراطورية الإسلامية فراراً من الملاحم المتتابعة بينهم وبين البيت الأموى تارة ، وبين البيت العباسى تارة أخرى .

وفى المغرب الأقصى استطاع العلويون أن يؤسسوا دولا ، وأن ينشئوا حضارات وأن يظفروا بالحب والتأييد من شعوب الشمال الافريقى كافة .

ولكنهم مع هذا لم يستطيعوا أن يوحدوا كلمتهم ودولتهم ، بل انقسم بيتهم إلى بيوت وتفرق جمعهم إلى قبائل وبطون ، ولهذا تعددت دولهم ، وتعددت بيوتهم المالكة ، وتعددت قبائلهم الحاكمة .

وكان الملك فى مدينة تلمسان وما جاورها لقبيلة بنى زغله ، وإلى تلك القبيلة ينتسب عبد الوهاب الشعرانى .

ومن خصائص العلويين ، أن الملك لم يصرفهم عن العلم ، ولم يباعد بينهم وبين الولاية الدينية ، والزعامة الروحية ، فكان منهم الملوك ، وكان منهم الأئمة الهداة .

ولهذا نرى فى تاريخ بنى زغلة ، أسرة الشعرانى ، الملك والتصوف يدرجان معاً ويعيشان معاً ويتقاسمان الحياة سويا ، ونشاهد جده موسى

ابن السلطان أحمد يؤثر طريق الله على الملك ومجده ، فيتلمذ على ابن مدين الصوفى ، ويترك المغرب مهاجراً إلى مصر تلبية لأمره .

ولقد أرخ الشعرانى لنفسه فى كتابه المنن فلنتركه يحدثنا عن نسبه .. .

« أحمد الله تعالى حيث جعلنى من أبناء الملوك[1] فإنى بحمد الله تعالى ، عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن زوفا بن الشيخ موسى المكنى فى بلاد البهنسا بأبى العمران جدى السادس ابن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن موسى بن السيد محمد بن الحنفية بن الإمام على ابن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد[2] سلطاناً بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى ولما اجتمع به جدى موسى قال له الشيخ أبو مدين لمن تنتسب ، قال : والدى السلطان أحمد ، فقال له : إنما عنيت نسبك من جهة الشرف ، فقال : أنتسب إلى السيد محمد بن الحنفية ، فقال له : ملك وشرف وفقر — أى تصوف — لا يجتمعن ، فقال : يا سيدى قد خلعت ما عدا الفقر ، فرباه فلما كمل فى الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر . وقال له أسكن بناحية (هو[3]) فإن بها قبرك ، فكان الأمر كما قال » .

وإذن فالشعرانى يقرر أن جده موسى قد حضر إلى مصر بإشارة صوفية من الامام أبى مدين ليتولى تربية المريدين والسالكين ، ويقيم للإيمان دولة على ضفاف النيل ، مؤثراً طريق الله ومجاهداته ، على نعيم الملك وأمجاده .

---

(١) المنن جزء ١ ص ٣٢ .

(٢) هو أبو عبد الله أحمد الزغل سلطان تلمسان وما والاها .

(٣) إحدى مدن مديرية قنا .

وهذا الأمر نهج صوفى نعرفه من تاريخ التصوف ، فالمتصوفة يعتبرون أنفسهم المدرسة الإسلاميـــة الكبرى التى تهيمن وتشرف على القلوب المحمدية وتهيمن وتشرف وتسئل أيضاً عن النهضة الإسلاميـة والعبادات الربانية ، ينظر المتصوفة إلى العالم الإسلامى على اعتباره أمـة واحدة ، هم رأسه المفكر وقلبه النابض ، ولهـذا درج كبار المتصوفة على تربية أفذاذ الرجال حتى إذا كملوا وأعدوا بعثوا بهم إلى المراكز الإسلامية التى تحتاج إليهم دعاة وهداة .

وإذن فقد استقر الشيخ موسى أبو العمران ببلدة (هو) وهى قرية كبرى من قرى الصعيد الأعلى ، وأهلها من قبائل الهوارة أولى البأس والعصبية الاسلامية ، وأسس الشيخ موسى فيها زاوية غدت مركزاً من مراكز التصوف فى مصر ومهدا من المهود التى يستنبت بها رجال الدعوة الصوفية .

ولم يحدد لنا التاريخ السنة التى هاجر فيها موسى إلى مصر ، ولكن كتب التاريخ حددت لنا تاريخ وفاته ، فقد توفى ببلدة (هو) عام ٧٠٧ هـ بعد أن نجحت دعوته واهتدى بهديها جمهور ضخم فى الصعيد الأعلى .

واستمرت أسرة الشعرانى بالصعيد تحمل لواء العلم والولاية حتى مطلع القرن التاسع الهجرى فهاجر عميدها أحمد إلى ساقية أبى شعره بالمنوفية وأسس بها زاوية للعلم والعبادة . والتف الناس حوله ينهلون من معارفه وفتوحاته ، فقد عرف بالتفوق فى العلوم الصوفيه رغم أميته . كما اشتهر بالولاية والنفحات ، وانتقل إلى جوار ربه عام ٨٢٨ هـ .

وحمل اللواء بعده حفيده أحمد الذى أوتى حظا من العلم المعروف فى الأزهر فى عهده وحظوظا من العلوم الربانية التى اختص بها المتصوفة .

ثم تأذن ربك لهذا البيت الكريم ، بيت الملك والدين . بأن عهد كماله

وتمامه قد حان فوهبه فى ليلة مباركة . الطفل العملاق عبدالوهاب الشعرانى

مولده :

ولد الشعرانى على أصح الروايات وأشهرها فى ٢٧ من شهر رمضان عام ٨٩٨ ﻫ وكان مولده فى بلدة « قلقشندة » وهى قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوما من مولده إلى قرية أبيه وإليها انتسب ، ولقب بالشعرانى ، وعرف بهـــذا اللقب واشتهر به ، وإن كان هو قد سمى نفسه فى بعض مؤلفاته بالشعراوى .

ولقد اضطرب رجال التاريخ فى تحديد مولده ، فقد ذكر صاحب النور السافر تاريخاً لمولده قبل هذا التاريخ بقليل ، وقد ذكر صاحب المناقب الكبرى تاريخاً آخر ، وأما المناوى وعلى مبارك والمستشرق شاخت ، فقد أيدوا التاريخ الذى ذكرناه .

ونحن نرجح رواية المناوى لأنه تلميذ الشعرانى الأول وصفيه وصديقه وهو بعد هذا أكبر المؤرخين الصوفيين بعد الشعرانى ، ويزداد ترجيحنا لهذه الرواية اتفاقها مع رواية على مبارك وهو من أدق من أرخ لهذه الفترة من التاريخ .

واضطرب رجال التاريخ أيضا فى الحديث عن طفولته ونشأته ، فذهب المستشرقان « كريمر » و « نيكلسون » إلى أنه اشتغل فى مطلع حياته — بالحياكة —

ولكن المستشرق « فولرز » يسخر من هذا القول قائلا « إن حياة الشعرانى كانت زاخرة بالعبادة حافلة بالتعليم فلم يكن من الميسور أن يجد وقتا يحترف فيه عملا .

ولست أدرى من أين جاء المستشرقان بتلك الأقصوصة وتاريخ طفولة

الشعرانى صريح فى أنه لم يضيع لحظة واحدة فى غير العلم والعبادة ، فقد حفظ القرآن وهو فى سن التميز كما يقول ودرس كتب النحو قبل العاشرة .

فهل هذا تاريخ رجل وهب نفسه للعلم والعبادة أم تاريخ من يشتغل بالارتزاق من الحيا كة ؟ والشعرانى يقول فى صراحة إن من منن الله عليه « أنه لم تكن هناك عوائق دنيوية تعيقنى عن طلب العلم والعبادة . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداى ولحتى ، وهذه القناعة اغنتنى عن الوقوع فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقم لى أنى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى من منذ بلغت ، ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا احتسب إلى وقتى هذا ، وعرضوا على الألف دينارا وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئا وكان التجار والكبراء يأتون بالذهب والفضة فانثرها فى صحن جامع العمرى فيلتقطه المجاورون » .

وجرى رجال التاريخ على أنه انتقل إلى القاهرة مع والده ، وأن والده قد سعى له حتى أدخله الأزهر الشريف .

وتلك الروايات أيضا تنحرف عن الحق وتجانب الصواب ، فإن الشعرانى وهو أصدق من يؤرخ لنفسه يقول فى المنن « إنه حفظ فى قريته القرآن الكريم وهو فى باكورة طفولته ، ثم حفظ أبو شجاع والأجرومية ودرسها على أخيه الشيخ عبد القادر بعد وفاة والده .

وإذن فقدمات والده كما ماتت والدته قبل حضوره إلى القاهرة ، وكان هذا كما يقول من منن الله عليه إذ نشأ يتيما من الأبوين ، فكان نصيره ووليه الله .

ولقد مات والده عام سبع وتسعمائة للهجرة ودفن فى زاويته بساقية أبى شعره ، وتاريخ انتقال الشعرانى إلى القاهرة كما أرخه بنفسه يأتى بعد تاريخ وفاة والده بثلاثة أعوام .

الشعرانى فى القاهرة

مات أبوه وتركه طفلا يتيما فقيراً ، ولكن هذا الطفل اليتيم الفقير ، كان عجبا ، كان عابداً متبتلا مستغرقا فى صلواته وأذكاره ، استغراقا لا يعرف فى مثل سنه ، وحسبك أنه كان يقوم الليل وهو فى الثامنة من عمره .

وكان يؤمن فى أعماق نفسه بأنه قد حف بعناية ربانية تعصمه من النقص فى دينه ، كما تعصمه من السوء فى حياته .

وكان يؤمن بهذا إيمانا قلبيا وجدانيا ، ويسوق على إيمانه حشدا من الأحداث والأدلة التى وقعت له فى طفولته ونجاه الله منها وحفظه من عواقبها .

وكان دارسا فطنا ألمعيا ذا شغف وبهم بالعلوم ، وحسبك أنه قبل أن يتم العاشرة كان قد درس من كتب النحو ما أهله لمجالسة العلماء .

وكان من يؤمن أيضاً إيماناً قلبيا وجدانيا بأن الله قد وهبه فوق الذاكرة الواعية الحافظة ، فهما فى العلم وبصيرة فى إدراك غوامضه ودقائقه .

مات أبوه فكفله أخوه العالم الصوفى الورع الشيخ عبد القادر . وعبد الوهاب يدين لأخيه بالكثير من التوجيه ، والحب الصادق ، والرعاية الكاملة الواهبة المانحة ، بل ويدين له فوق ذلك بالحضور إلى القاهرة ، حيث تفتحت أمامه الآفاق .

ويقص علينا الشعرانى تاريخ حضوره إلى القاهرة بذلك الأسلوب الاخاذ الصادق الذى عرف عن الشعرانى وعرف به . فيقول .

« وكان مجيء إلى القاهرة افتتاح سنة عشرة وتسعمائة ، وعمرى إذ ذاك

اثنتا عشرة سنة فاقمت فى جامع سيدى أبو العباس الغمرى ، وحنن الله على شيخ الجامع وأولاده فكنت بينهم كأنى واحد منهم آكل ما يأكلون وألبس ما يلبسون ، فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها على الأشياخ.

ثم يقول « ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقوع فى المعاصى معتقداً عند الناس ، يعرضون على كثيراً من الذهب والفضة والثياب ، فتارة أردها وتارة أطرحها فى صحن الجامع فيلتقطها المجاورون ».

والشعرانى هنا يغفل الإشارة إلى حقبة من تاريخه فى طلب العلم ، وهى الفترة التى مكثها فى الأزهر .

فإجماع رجال التاريخ على أنه حضر من قريته إلى الأزهر ، حيث قضى خمس سنوات يتلقى العلم على يد شيخه على الشونى ، الذى أحبه وقربه واصطفاه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مسجد الغمرى بناء على مشورة شيخه على الشونى .

ومسجد الغمرى كان فى ذلك الوقت منارة للعلم ومثابة للطلاب ، وكانت الحياة فيه على غرار أمثاله من المساجد التى تحولت فى العالم الإسلامى إلى معاهد علمية ، لا يكتفى فيها بالتعليم فقط بل تجرى فيها أيضاً الأرزاق من الأوقاف والهبات على من يلازمها ويتخصص للعلم فيها[١] .

ولبث الشعرانى فى مسجد الغمرى ، يعلم ويتعلم ويتهجد ويتعبد ، سبعة عشرة عاماً ، ثم انتقل إلى مدرسة أم خوند ، وفى تلك المدرسة ، بزغ نجم

---

(١) يقول ابن خلكان ج ١ ص ٥٥ أنه كان فى كل جامع كبير مكتبة لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد .

ويقول المقدسى أن المساجد فى القاهرة تحولت إلى معاهد عامرة بالطلاب حتى أنه أحصى فى المسجد الجامع بالقاهرة فى وقت العشاء مائة وعشرة مجلسا من مجالس العلم .

الشعرانى وتألق تألقاً ملأ الدنيا حوله صياحا . صياحاً امتزج فيه هتاف الإعجاب من محبيه بعاصفة الانتقاد والافتراء من حساده وشانئيه .

وقد حاول بعض المستشرقين ، وجاراهم بعض دارسي الشعرانى ، من المعاصرين أن يلقوا ظلالا من الشكوك والريب حول انتقاله المفاجيء من مسجد الغمرى إلى مدرسة خوند لخاكوا أسطورة خيالية حول حب الشعرانى لابنة شيخ مسجد الغمرى . وغضب والدها لذلك . ولم يأتوا بدليل واحد على دعواهم . وإنما أقاموها استنتاجاً خيالياً ، لأنهم كما يقولون لم يجدوا مبرر لهذا الانتقال فلا بد إذن أن يكون هناك ثمة سبب خفى وهذا السبب الخفى لا بد وأن يكون شجاراً بين الشعرانى وشيخ المسجد . وهذا الشجار . لا بد وأن يكون أساسه حباً فاشلا . بين الشعرانى وابنة الشيخ .

وتلك الأسطورة الاستنتاجية أشبه بالروايات المهلهلة التى أولع بها كتاب القصص الذين لا ينظرون إلى الحياة . إلا من وراء عدسات الخيال الجدى .

ويحدثنا على مبارك عن تلك الفترة من حياة الشعرانى فيقول « لقد راض الشعرانى نفسه على النهج الصوفى وهو فى جامع الغمرى . فطار ذكره وذاع فى الناس أمره . وكان شيخه على الشونى قد أذن له فى أن يرتب بهذا المسجد مجلساً للصلاة والسلام على رسول الله . ولكن أولاد الغمرى أكل قلوبهم الحسد على تلك المكانة العالية التى ظفر بها الشعرانى فطلبوا منه أن يغادر مسجدهم » .

ويروى صاحب النور السافر . أن الشعرانى أخذته حالة وجد ذات يوم فصاح باسم الله صيحة ارتجت لها جدران المسجد . وكاد يتصدع منها بيت الشيخ أبى الحسن الغمرى وكان على كثب منه فاستفسر هذا عن صاحب الصوت . حتى إذا عرفه هم بالرحيل إلى بيت آخر . ولكن

الشعرانى كان قد سبقه إلى الرحيل . تاركا وراءه كل ما يملك وولى وجهه شطر بين السورين حتى حط رحاله بمدرسة أم خوند وأقام تجاهها ستة أيام . فرأى فى منامه أن رسول الله صلوات الله عليه قد أذن له بالإقامة بها . فدخلها مع أسرته .

ولا تعارض فى الجوهر بين رواية على مبارك وبين رواية صاحب النور السافر . فنى الرواية الأولى . أن أولاد الغمرى نفسوا عليه مكانته حتى طلبوا منه الرحيل عن مسجدهم .

وفى الرواية الثانية أن الشيخ تظاهر بالرحيل لسبب تافه يضمر وراءه أكثر من معنى . وأدرك الشعرانى الغاية والهدف من هذا التظاهر فسارع هو بالانتقال أدباً مع شيخه واختصاراً للخطوة الثانية التى لا ريب فيها بعد أن طغى اسم الشعرانى على الشيخ وعلى أسرة الشيخ .

وإذن فهذا الانتقال كان مرده التنافس والحسد لا الحب والهوى . كان ضرورة طبيعية للشعرانى فقد آن أن يستقل بنفسه وبمجالسه العلمية . وآن له أن يكون صدرا لهذه المجالس لا مجرد تابع وتلميذ .

الشعرانى طالب العلم

جاء الشعرانى من قريته إلى القاهرة مهاجراً فى سبيل العلم فعاش تحت ظلال المساجد ليله ونهاره، متبتلا فى طلب العلم، عالماً فى التعبد، عاش للعلم والتقوى، تقياً طاهراً مجداً مكافحاً.

وقد اتصل منذ يومه الأول بالقاهرة بصفوة علمائها. جلال الدين السيوطى، وزكريا الأنصارى، وناصر الدين اللقانى، والرملى. والسمنودى وأضرابهم وقد أفاض الشعرانى فى ذكر أساتذته مما استغرق صفحات وصفحات من كتبه. كما أفاض فى ذكر إجلاله لهم، وحبهم له.

ودرس الشعرانى على أساتذته المكتبة الإسلامية كلها بشتيت فنونها وعلومها فى التصوف والفقه والحديث والتفسير واللغة والأصول حتى غدا كما يقول: لا يتصور أحد من معاصريه أحاط بما أحاط به علما أو تخلق بما تخلق به عملا.

درس الشعرانى كل معارف عصره العلمية. دراسة فهم وتذوق بروح المجتهد المؤمن المحب، بروح الطالب المثالى. الذى ينشد الحق فلا يتعصب لمذهب من غير دليل، والذى يجل أئمة الإسلام ورجال الفكر فيه، فلا يسارع إلى تخطئة أحدهم ولا يبادر إلى الاعتراض عليه، لإيمانه بأن علماء الإسلام وأئمته على هدى من ربهم، وبصيرة من نور علمهم.

ثم هو بعد ذلك خاشع القلب متواضعه فى محاريب العلم، فإذا أدرك بفهمه لطيفة علمية أو لمس بذكائه واستنباطه حقيقة من حقائق المعرفة فى كتاب الله وأحاديث رسوله، فلا يجزم كما يقول بأن ما فهمه أو استنبطه هو مراد الله من آيه، أو مراد رسوله من حديثه، تأدباً وتحرزاً من دعوى العلم أو التلبس برداء كبره وغروره.

ومن . لقه العلمي أنه حفظ نفسه من الجدل والجدال ورفع الصوت في مجالس العلم ، ولنترك الشعراني يحدثنا عن دراساته بأسلوبه البسيط الساحر

. ثم لما جئت إلى مصر حفظت كتاب المنهاج للنووي ثم ألفية ابن مالك ثم التوضيح لابن هشام . ثم جمع الجوامع ثم ألفية العراقي ، ثم تلخيص المفتاح ثم الشاطبية ، ثم قواعد ابن هشام وغير ذلك من المختصرات . وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابهاتها كالقرآن من جودة الحفظ ، ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة ، لكونه أجمع كتاب في مذهب الشافعي ، فحفظت منه إلى باب القضاء على الغائب ، وهو في أواخر الكتاب ، فلقيني بعض أرباب الأحوال بباب الخرق — باب الخلق — خارج باب زويلة فقال لي مكاشفاً : قف على باب القضاء على الغائب ولا تقض على غائب بشيء .

فما قدرت بعد ذلك على حفظ شيء منه ، لكنني طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة وكنت أقرأ محفوظي للمتن في الشرح . وأنظر كل شيء توقفت في فهمه ؛ حتى صار شرحه للشيخ زكريا [1] عندي نصب عيني .

ثم لقيني الشيخ أحمد البهلول رضي الله عنه ، فقال لي مكاشفاً : أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد تعلمته ، فشاورت في ذلك مشايخي فقالوا . لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ ، فإذا فهمتها و تبحرت فيها ، فعليك بطريق القوم .

ثم يقول : وقرأت محفوظاتي على شيوخي وهم نحو خمسين شيخاً ، فقرأت على الشيخ أمين الدين شرح المنهاج للجلال المحلي ، وكنت أطالع على درسي هذا ، القوت للأذرعي . والقطعة والتكملة للإسنوي والزركشي ،

---

(١) الشيخ زكريا الانصاري شيخ الأزهر إبان ذلك الوقت .

والقطعة للسبكى، والعمدة لابن الملقن، وشرح ابن قاضى شهبه . وشرح الروض للشيخ زكريا الأنصارى، وأكتب زوائد هذه الكتب على الشيخ جلال الدين، وألصق به أوراقاً حتى ربما تصير الحواشى أكثر من الكتاب، ثم اقرؤوها كلها عليه .

وقرأت عليه أيضاً شرح جمع الجوامع للشيخ جلال الدين . وحاشية الشيخ كمال الدين . وشرح العراقى للجلال الحافظ السخاوى .

ويمضى الشعرانى فى الحديث عن دراساته وشيخوخته حتى يذهل القارىء بذلك الفيض الدافق من الكتب التى أحاط بها وألم بدقائقها وأسرارها .

الشعرانى فى طريقه إلى الله :

تنفس الشعرانى أول ما تنفس الحياة فى جو صوفى خالص . وفى بيت قوامه التعبد والتبتل ، فهو ينحدر من أسرة ترك رأسها الأول مجد الملك ورفاهيته ونعيمه، إلى النهج الصوفى ومجاهداته ومسارح تعبداته : ومجال تأملاته، وأجواء تحليقاته . ومطالع أنواره وإلهاماته . حتى إذا كمل وارتوى واستوى انطلق داعيا إلى الله . على بصيرة من أمره .

وقفى أبناؤه أثر خطواته . فما كان منهم إلا تقى نقى . وعالم ربانى وإمام من الهداة . وجاء الشعرانى فرأى أول مارأى والده الصوفى صاحب الخلوة الذى كان قليلا من الليل ما يهجع، وشاهد شقيقه العالم الصوفى الذى وهب نفسه لله . فكان يستغفر الله . مع كل نفس من أنفاسه . والذى ترك الحلال خشية الشبهات .

وعاش الشعرانى طاهراً بين أطهار . قوته القرآن الذى حفظه قبل التمييز ولم يكن لهوه فى طفولته عبث أطفال، وشغب صغار . بل فتح عينيه ليقرأ ويقرأ فى التفسير والحديث والفقه والأصول . وليجالس العلماء ويتلق منهم

وينهل من معارفهم وهو فى الثانية عشر من عمره .

ومن الله عليه فكان شيوخه جميعا فى دراساته ممن جمعوا بين الدراسة العلمية ، والمناهج التعبدية الصوفية .

ولهذا رأينا الشعرانى ينزع إلى التصوف ويتعجل السبل إلى أن يشق طريقه على أيدى أرباب الطريق . ورأينا شيوخه يطلبون منه التريث حتى يستكمل العلوم الظاهرية حفظا وفهما واستنباطا .

ولكن الشعرانى كان من حيث لا يشعر صوفيا كاملا من صغره . فقد زاول التصوف عملا بفطرته . فنحن نراه يكبح شهواته ويرد رغباته حتى عن الحلال المباح . ويقبل على ذكر الله ليله ونهاره حتى ليعلق فى سقف خلوته حبلا يطوق عنقه متى جلس منذ العشاء حتى مطلع الفجر . ليأمن سنات النوم وغفواته . فإن غلبه النعاس على أمره . صب على جسمه الماء البارد

ولقد أخذ نفسه فى العبادة منذ صغره بالأحوط والأكمل . والأحوط عنده اجتناب المكروه كأنه حرام ، والاعتناء بالسنة كأنها واجبة وهكذا .

والشعرانى نفسه يفصل هذا المقام فيقول : أن من منّ الله عليه أن ألهمه مجاهدة نفسه من غير شيخ . لما تبحر فى العلم ، ثم بشيخ ليساعده كما يقول على إزالة الموانع التى تعوقه عن العمل بما علمه .

ولنترك الشعرانى يحدثنا بأسلوبه القلبى الساحر راويا لنا قصة عباداته ومجاهداته :

« وتركت أكل لذيذ الطعام . ولبست الخيش والمرقعات نحو سنتين . ثم أكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين . ثم أغاثنى الله تبارك وتعالى بالحلال المناسب لمقامى إذ ذاك . وكنت لا آكل طعام أمين ولا مباشر ولا تاجر ولا فقيه وغيرهم ممن فى كسبهم شك . وضاقت على الأرض كلها ونفرت من

جميع الناس فكنت أقيم فى المساجد المهجورة . والابراج الخراب مدة طويلة وما رأيت أصفى من تلك الأيام .

وكنت أطوى الثلاثة أيام وأكثر ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز . وضعفت بشريتى . وقويت روحانيتى . حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمرى [١] فأجلس عليه فى الليل والناس نيام . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع . أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى . وطلبها الصعود إلى عالمها . فانه لا يثقل الانسان إلى الأرض إلا كثرة الشهوات . وهذا هو سبب تحريك الإنسان رأسه حال الذكر وتلاوة القرآن فكأن الروح تشتاق إلى القرب من حضرة ربها . إذا سمعت كلامه أو اسمه فتكاد تلحق بعالمها العلوى .

ولما غلب على طلب العزلة عن الناس . تنكرت مى قلوب أصحابى . ونفروا منى حتى كأنهم لا يعرفوننى من ضيق وقتى عن مباسطتهم بالكلام اللغو .

وكنت إذا فتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر . ثم أصلى الصبح وأذكر إلى ضحوة النهار . ثم أصلى الضحى وأذكر حتى يدخل وقت الظهر . فأصلى الظهر . ثم أذكر إلى العصر . ومن صلاة العصر إلى المغرب . ومن صلاة المغرب إلى العشاء . وهكذا فمكثت على ذلك نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى بربع القرآن بين المغرب والعشاء ثم أتهجد بباقيه فأختمه قبل الفجر . وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة . وكان نومى غلبة تخطف رأسى خطفة بعد خطفة . وخفقة بعد خفقة وكثيراً ما يغلب على النوم فأضرب أفخاذى بالسوط . وربما نزلت بثيابى فى الماء البارد فى الشتاء حتى لا يأخذنى النوم .

---

(١) الجزء الأول من المتن .

وهذه الأمور من قاعدة ما إذا تعارض عندنا مفسدتان وجب ارتكاب أخفهما مفسدة ، ولا شك فى أن وقوف المحب بين يدى الله عز وجل فى الظلام مع تألم جسمه بالضرب . أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل حال تجليه مع صحة جسمه ، كما أشار إليه قوله ﷺ « خصلتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ولكل مقام رجال ، ومن طلب نفيسا خاطر بنفيس فعلم أن المحب لله فى وادى ، والمنكر عليه فى واد آخر ، ومن طالع أحوال القوم فى مجاهداتهم سهل عليه ما يكابده فى نفسه ، فقد وقع للشبلى أنه كان إذا غلب عليه النوم يضرب نفسه بقضيب الخيرزان حتى ربما أفنى الحزمه فى الليلة الواحدة ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فأنزل الله عليه « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى : الآية » .

وهكذا كان الشعرانى صوفيا بغير شيخ .

ويمضى الشعرانى فى وصف مجاهداته لنفسه ، وهى مجاهدات لا يطيقها إلا رجال الله . بل لا يصبر على الاستماع إليها ولا يجد مذاقها عند ذكرها إلا من أحبه الله وارتضاه لهداه . حتى يقبل قول الشعرانى أنه حينما طعم التراب لما افتقد الحلال فى مطعمه . حاله لحما وسمنا ولبنا .

أجل . من ارتضاه الله للهدى . وأنار قلبه . يرتضى هذا القول من الشعرانى ويفسره تفسيراً روحياً . أليس كل شىء نأكله أصلا من التراب؟

ثم يعطف الشعرانى على ثمرة هذه المجاهدات فى خلقه وحياته . فيقول : « أنه بلغ مقاما فى الزهد حتى لو أمطرت السماء ذهباً وصار الناس ينتهبونه . لم يجد داعيا إلى أخذ شىء منه إلا لأمر مشروع . ولو مر على تلال الذهب والفضة من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا . ولا حساب عليها فى العقبى لم يتناول منها ديناراً واحداً إلا لضرورة شرعية . فقد فنى اختياره مع الله .

وفقدت أعضاؤه الشهوة للمعصية أو الجاه . ثم حضوره دائماً بقلبه مع الله . أو كما يقول « ثم حضوري مع الله حال أكلي ومشربي كأني في الصلاة » .

وبلغ مقاما في الخلق من صفاته شفقته على جميع المسلمين شفقة قلبية حتى ليتألم كما يتألم أخوه المؤمن ، ويحس بشقائه كما يحس به ، ثم صعوده فوق ذلك درجات لتشمل رحمته الدنيا بأسرها ، إذ يقول .

« ثم ستري لعورات الناس وعيوبهم حتى العصاة » وذلك لون من الخلق والرحمة . لم يعرف لغير المتصوفة .

ثم تصدره للدعوة والارشاد وإعلاء كلمة الله . حتى إنه ليقف في وجه كبار العصاة والولاة هاتفا بكلمة الحق ودعوته . لأن روحه وقلبه عند الله لا عند الناس ، ولأنه جعل أخلاقه ، مقاصد لا وسائل .

ثم ماذا ؟ ثم كما يقول « غيرتي على أذني أن تسمع زورا ، وعلى عيني أن تنظر محرما وعلى لساني أن يتكلم باطلا » .

ذلك بعض ما أخذ الشعراني به نفسه من تعبد وخلق ، قبل تصوفه ، أو قبل أن يسلك الطريق إلى الله على أيدي شيوخه .

شيوخه فى الطريق

يقول شيخ المتصوفة القشيرى ، فى ترجمة أبى على الثقفى « لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس كلهم ، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة ، من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه ويريه عيوب أعماله ورعونات نفسه لا يحل الاقتداء به فى تصحيح المعاملات » .

ويقول الشعرانى « . . ولو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم لما احتاج مثل الغزالى ، وعز الدين بن عبد السلام ، إلى شيخ ، مع أنهما كانا يقولان قبل دخولهما الطريق ، من قال : إن ثم طريقاً للعلم غير ما بأيدينا فقد افترى على الله كذباً ، فلما دخلا الطريق كانا يقولان : قد ضيعنا عمرنا بالبطالة والحجاب » .

والمتصوفة جميعا قد أجمعوا على أن السالك لطريق الله لا بد له من شيخ مرشد ، ليكشف له الصحيح من الزائف ، فى الالهامات والواردات ، وليعلمه الأدب وطرائق التحلى به ، وليفصل له فى خواطر قلبه ، وليعصمه من الزلل وليداوى أمراضه النفسية ، من الكبر والرياء وحب الدنيا . والحسد والغل والنفاق ، وأمثالها .

فالتصوف إلهامات ، تبدأ بعد نهايات أهل الفكر والدرس ، وقوامه معان واستنباطات ، وفهم فى أسرار القرآن ، فلا بد لرائده من مصباح وهاد والشيخ هو المصباح الهادى .

والتصوف آداب وتزكية نفوس ، وتطهير أخلاق ، ومجاهدات وتصحيح معاملات ، والشيخ هنا يثبت ويرشد ، ويلهم ويفصل الآيات .

ثم يقول الشعرانى ، رداً على من يقول بأن السلف الصالح لم يعرف هذا اللون من التربية ، وهذا اللون الممثل فى الشيخ والمريد .

« وقد كان السلف الصالح لصفاء نفوسهم وقلوبهم ، لا يحتاجون فى طريق العمل بعلمهم إلى شيخ لعدم الموانع ، وصار الناس اليوم لهم موانع لا تحصى لذلك وجب اتخاذ شيخ يرشد إلى طريق إزالة هذه الموانع ، من باب ما لا يتم الواجب إلا به . فهو واجب ، فإن اشتغل المريد بعد ذلك بالعلم ، أو صلى أو صام ، أو تورع أو زهد ، كان محفوظا من الرعونات التى تجرح مقام الاخلاص أو تحبط العمل .

وحقيقة الصوفى هو عالم عمل بعلمه ، على وفق ما أمر الله به ، وكانت صور مجاهداتى لنفسى من غير شيخ ، أنى كنت أطالع كتب القوم كرسالة القشيرى ، وعوارف المعارف ، والقوت لأبى طالب المكى ، والاحياء للغزالى ونحو ذلك . وأعمل كالذى يدخل دربا لا يدرى هل ينفذ أم لا ؟ فان رآه نافذا خرج منه ، وإلا رجع من التعب . فهذا مثال من لا شيخ له فان فائدة الشيخ إنما هى اختصار الطريق للمريد ، ومن سلك من غير شيخ تاه ، وقطع عمره ولم يصل إلى مقصوده لأن مثال الشيخ ، مثال دليل الحجاج إلى مكة فى الليالى المظلمة » .

ثم يقول « والشيخ فى الطريق ضرورة لازمة ، بالغ ما بلغ علم المريد ، ولو حفظ آلاف الكتب ، فهو فى هذه الحالة كمن يحفظ كتابا فى الطب ولا يعرف عمليا منازل الدواء على الداء ، فاذا سمعه سامع وهو يدرس الكتاب قال إنه طبيب عظيم ، فاذا رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته علم حينئذ مقدار جهله » .

ويشترط فى الشيخ كما يقول الشعرانى فوق تعبده ووصوله ، أن يكون متبحرا فى علوم الشريعة على اختلاف أنواعها عارفا بالأصول ومذاهب الأئمة الاربعة وغيرها ، بحيث يعرف أدلتها ومنازع أقوالها ، محيطا بأم الكتاب التى يتفرع منها كل قول » .

ولما جاء ميقات الشعرانى ليسلك الطريق إلى باريه وهاديه ، سلوكا كما اشترط المتصوفة ، وكما رسمه العابدون الواصلون الأولون ، أشار عليه « أحمد البهلول » صفيه ونجيه ، بأنه وإن كان قاب قوسين أو أدنى من النور الربانى والفتح الإلهى ، إلا أن القمم العالية لا يعبدها إلا الشيخ السالك المدرب الموهوب المأذون له .

واستقر كلام صفيه ونجيه فى قلبه . فلما آب إلى منزله ، وانتهى من أوراده وتسبيحاته لم يجد قلبه خالصا . بل وجد كلام صفيه ونجيه أحمد البهلول يراوده ويأخذ عليه بمجامع قلبه . وخواطر نفسه . حتى إذا أسلمه الجهد إلى سنة من النوم . إذ بطيف تتلألأ أجنحته . وبفوح طيبه وعطره يهمس له فى منامه بالإشارة والبشارة .

وإذا بالبشارة والإشارة تتحولان إلى كلام حلو جميل . لازم قلب الشعرانى طوال حياته .

« إن أردت حياة قلبك الحياة التى لاموت بعدها . فاخرج عن الركون إلى الخلق ، ومت عن هواك وإرادتك . فهناك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ويعطيك عطاء لا منع بعده . ويريحك راحة لا تعب بعدها . ويعلمك علما لا جهل بعده ، ويطهرك طهارة لا تدنيس بعدها ، ويرفع قدرك فى قلوب عباده ، فلا تحقر بعدها .

قد ذهبت أيام المحن وجاءت أيام المنن ... »

واستيقظ الشعرانى عامر القلب بالأمانى ، فانطلق إلى شيوخ الطريق وهم بعض أصدقائه وبعض شيوخه : ولنترك الشعرانى يحدثنا بحديثه القلبى عن انتقاله من مقامات العلم والزهد إلى مقامات الفتح والصفاء .

« ... ولقد اجتمعت بخلائق لا تحصى من أهل الطريق ، التمس لديهم المفاتيح والأبواب فلم يكن لى وديعة عند أحد منهم سوى ثلاثة . على

المرصفى ، ومحمد الشناوى ، وعلى الخواص . رضى الله عنهم .

فسلكت على يد الأولين شيئاً يسيراً ، وكان فطامى على يد على الخواص أعنى الفطام اليسير المعهود بين القوم ، وإلا فالحق ، أنه لا فطام حتى يموت الإنسان .

ومنهم عرفت يقيناً أنه لا بد من شيخ فى الطريق ، كما قال موسى للخضر « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً » .

وقد اعترف الإمام أحمد بن حنبل لأبى حمزة البغدادى بالفضل عليه . كما اعترف الإمام ابن سريج لأبى القاسم الجنيد .

وكان الغزالى يقول بعد اجتماعه بشيخه : ضيعنا عمرنا بالبطالة ، وهو حجة الإسلام ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وهو من هو ، يقول ما عرفت الإسلام الكامل ، إلا بعد اجتماعى على الشيخ أبى الحسن الشاذلى

ولما اجتمعت بأهل الطريق . قالوا لى : اجعل أعمالك كلها مقاصد ، لتحضر فيها مع الله تعالى ، ولا تتخذها وسائل ، فتموت ولا تصل إلى مقصودك . فقربوا على الطريق ... »

الشعرانى والخواص

الخواص رجل من رجال الله . وعلم من الأعلام الهداة ، ومحجة ومنارة من المنارات التى يهبها الله لعباده ، لتكون للسالكين إليه ، نوراً وسلماً .

ولكل رجل من رجال الله مقام . ولكل رجل من رجال الله رسالة فى الحياة . فمنهم من رسالته فى التربية والتوجيه . القلم والبيان . ومنهم من رسالته الكرامات وخوارق العادات ، للتثبيت واليقين ، ومنهم من رسالته تربية المريدين ، ومن رسالته تربية العارفين .

والمربين للعارفين هم الكمل السادة ، ومنهم من يظهره الله . ومنهم من يحجبه ، ومنهم بين هؤلاء وهؤلاء .

فالخواص فى الطريق ، وعند اهله ، كامل من السادة ، وإن جهله الناس وإن أنكره العوام، العوام رغم علمهم ، ورغم ما بأيديهم من أقلام وكتب .

الخواص كامل من السادة ، وحجته على مكانته عند أهل الطريق معروفة واضحة . وحجته عند غيرهم أنه صنع العارف بالله عبد الوهاب الشعرانى .

ولقد صنع الخواص عبد الوهاب الصوفى ، وعبد الوهاب خلد بتصوفه أى الجانب الذى تولاه الخواص ، وحسب الخواص هذا عند من لا يعرفه .

ولقد عاش الشعرانى طوال حياته الصوفية ، وعاءا من أوعية الخواص فالخواص إمامه وهاديه . وأستاذه وملقنه ومربيه .

والخواص هو معراج الشعرانى وسلمه الذى صعد عليه إلى أبواب الفتح وسموات المنح ومناطق الإلهام والنور . وليس فى هذا ما ينقص الشعرانى. بل فى هذا مفخرته . لأن به كان خلوده .

وصلة الخواص بالشعرانى هى آية الآيات على مقام الشيخ فى الطريق ، وهى آية كونية على مقام العلم اللدنى ، فلقد كان الخواص أميا وكان الشعرانى

عالما ، ذلك هو حكم الظاهر أما حكم الباطن . فلقد كان الخواص عالما وكان الشعرانى أميا .

علم الأول كان الوهب . وعلم الثانى كان الكسب . والعلم الحقيق عند الصوفية . العلم الذى يقول صاحبه بملء فيه إنه علمى . هو علوم الفتح لأنها خاصة بصاحبها . أما علوم الكسب . فهى ليست علوم صاحبها إنما هى علوم الكتب . أو كما يقول الخواص « علوم الرجل حقيقة ، هو مالم يسبق إليه وأما من كان علمه مستفادا من النقل . فليس ذلك له بعلم . إنما هو صاحب لصاحب العلم .

والشعرانى يقول : إن من منّ الله عليه . أن كان وصوله وفتحه على يد أمى لا يعرف القراءة والكتابة . ويقول فى وصف هذا الأمى .

« رجل غلب عليه الخفاء . فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم . إلا العلماء العاملون . لأنه رجل كامل عندنا بلا شك . والكامل إذا بلغ مقام الكمال فى العرفان صار غريبا فى الأكوان » .

ولنترك الشعرانى يحدثنا بحديثه الروحى العذب عن وصوله إلى معارج المعارف العلوية على يدى شيخه . ثم يحدثنا عن بحار علوم شيخه ومرشده .

« وكانت مجاهداتى على يدى سيدى على الخواص ، كثيرة متنوعة ، منها أنه أمرنى أول اجتماعى عليه . ببيع جميع كتبى والتصدق بثمنها على الفقراء ففعلت وكانت كتبها نفيسة مما يساوى عادة ثمنا كثيرا فبعتها وتصدقت بثمنها ، فصار عندى التفات إليها . لكثرة تعبى فيها وكتابة الحواشى والتعليقات عليها ، حتى صرت كأنى سلبت العلم ، فقال لى اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله عز وجل ، فإنهم قالوا : ملتفت لا يصل . فعملت على قطع الالتفات إليها مدة حتى خلصت بحمد الله من ذلك .

ثم أمرنى بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقتى ، وكنت أهرب من الناس وأرى نفسى خيراً منهم فقال لى . إعمل على قطع إنك خير منهم . فجاهدت نفسى حتى صرت أرى أرذلهم خيراً منى .

ثم أمرنى بالإختلاط بهم والصبر على أذاهم وعدم مقابلتهم بالمثل ، فعملت على ذلك حتى قطعته ، فرأيت نفسى حينئذ . أنى صرت أفضل مقاما منهم ، فقال لى إعمل على قطع ذلك أيضاً . فعملت حتى قطعته .

ثم أمرنى بالاشتغال بذكر الله سراً وعلانية والإنقطاع بالكلية إليه ، وكل خاطر خطر لى مما سوى الله عز وجل صرفته عن خاطرى فوراً ، فمكثت على ذلك عدة أشهر

ثم أمرنى بترك أكل الشهوات مطلقاً فتركتها واكتفيت بما يسد الرمق ويمسك الحياة حتى صرت أكاد أصعد بالهمة فى الهواء . وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية ، ثم أمرنى بالتوجه إلى الله تبارك وتعالى فى أن يطلعنى على أدلتها الشرعية ، فلما أطلعت عليها وصار لوح قلبى ممسوحا من العلوم النقلية لاندراجها تحت الأدلة ، ترادفت على حينئذ العلوم الوهبية .

ثم يتحدث الشعرانى حديثا طويلا عن ترقبه للواردات والالهامات والفتح ، وكيف أمره شيخه الخواص بضروب من المجاهدات لصفاء قلبه واستكمال قطع علائقه الدنيوية . وأخيراً أخبره شيخه بأن بداية فتحه ستكون على شاطىء النيل فى مكان حدده له . فإذا انتهى الشعرانى من ذلك قال :

« فبينما أنا واقف على ساحل النيل عند بيوت البرابرة وسواقى القلعة أنتظر وأترقب . إذا بأبواب من العلوم اللدنية انفتحت لقلبى كل باب أوسع مما بين السماء والأرض ، فصرت أتكلم على معانى القرآن والحديث . واستنبط منها الأحكام وقواعد النحو والأصول وغير ذلك من العلوم . حتى استغنيت عن النظر فى كتب المؤلفين . فكتبت على ذلك نحو مائة كراسة ، فلما عرضتها

على سيدى على الخواص أمرنى بفعله . وقال هذا علم مخلوط بفكر وكسب وعلوم الوهب منزهة عن مثل ذلك فغسلتها . وأمرنى بالعمل على تصفية القلب من شوائب الفكر ، وقال بينك وبين علم الوهب الخالص ألف مقام ، فصرت أعرض عليه كل شيء فتح به على وهو يقول أعرض عن هذا ، واطلب ما فوقه ، إلى أن كان ما كان ، فهذا صورة فتحى بهذه المجاهدة ، على يدى شيخى فالحمد لله رب العالمين » .

ثم يصور لنا الشعرانى بعد ذلك فيما يصور ، من صلاته بالخواص ، بحر العلم الخاص بشيخه فيصفه ، بأنه مبسوط الرحاب عميق القاع ، أمواجه الكشف الصحيح ، وعبابه التعريف الإلهى .

ولقد غطس الشعرانى كما يقول فى بحر شيخه خمس مرات — ومن حق المريد أن يغترف من بحر المعرفة الخاص بشيخه — فلما هم بالسادسة استحال البحر حجراً .

وقد وجد الشعرانى فى كل مرة غاص فيها صيداً ثميناً ، صيداً هو خزانة من خزائن العلم اللدنى .

فى المرة الأولى وجد خزانة على بابها قفل ، ففتحها بقول «لا إله إلا الله» فوجد فيها عجبا ، وجد العلوم التى برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العالم على اختلاف طبقاته ، من الصديقة الكبرى إلى آخر درجات الولاية .

وتلك الخزانة تشتمل على علوم لا تحصى ولا تدرك إلا بتعريف من الله عز وجل ، ووجد الشعرانى علوم تلك الخزانة مرتبة منسقة . وعلى كل علم إسمه .

ولقد أخرج الشعرانى كما يقول جميع تلك العلوم من الخزانة وجعلها من جملة ذخائره ومعارفه وأضافها إلى ما عنده .

فلما غطس فى المرة الثانية ، وجد خزانة أخرى على بابها قفلان . ففتحها

باسم « الله » فوجد فيها جملة من آيات القرآن العظيم من أول سورة الحاقة إلى آخر القرآن ، ووجد تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوباً . وهو علم لا تدركه العقول ، ولا يستفاد من كتب .

وأخرج الشعرانى أيضاً علوم تلك الخزانة وأضافها إلى معارفه وذخائره وضمها إلى ثروته وكنوزه .

وهكذا يمضى الشعرانى مصوراً لنا بحار شيخه ومعارفه اللدنية ، شارحاً للخزن المملوءة بالكنوز التى عثر عليها فى تلك البحار ، وكيفية فتحها وما فيها من علوم استحوذ عليها واستفاد بها . وهو تصوير برعت فيه الأقلام الصوفية ومرن عليه الذوق الصوفى .

والمراد بالخزن وأقفالها وما كتب عليها وطرائق فتحها . هو فيما نعتقد الرمز إلى أسرار الذكر . وأسرار أسماء الله الحسنى . وفتوحات تلاوتها .

والذكر هو سر التصوف وروحه ، كما أنه عندهم بداية الإلهام ونهايته وليس بصوفى من غفل قلبه لحظة عن ذكر الله ، أو التفكير فى آياته .

وعلى هذا النهج تصوف الشعرانى ، فكان تصوفه بداية خلوده ، وكان تصوفه فتحاً ربانياً كما يقولون . لعصره ، والعصور المتعاقبة .

فلقد ربى الشعرانى آلافاً من المريدين والتلاميذ المعاصرين له . وجعل منهم مدرسة إيمانية تذكر الله . وتدعو إلى هداه ، ولا تزال كتبه تربى وتمنح الهدى واليقين للآلاف من التلاميذ والمريدين .

الشعرانى فى مدرسة خوند

استقر الشعرانى بمدرسة أم خوند ، بعيدا عن مسجد الغمرى المشحون بالدسائس والحسد ، وزالت أيام المحن جميعها ، وأقبلت أيام المنن جميعها ، كما يقول الشعرانى .

وفى مدرسة أم خوند ، دخل الشعرانى دورا جديدا من أدوار حياته الكبرى ، وابتدأت الخطوط العريضة لمجده العريض ، ترتسم وتتحدد ، وتأخذ ألوانها وتتجه إلى أهدافها .

ففى تلك المدرسة تصوف الشعرانى . وسلك الطريق إلى الله ، وفيها كانت مجالسه العلمية والتعبدية ، التى غدت قبلة لصفوة العباد والعلماء ، يلوذون بالشعرانى الإمام العابد العالم ، ينهلون من علمه ، ويغترفون من فيضه ، ويلتمسون النور فى هديه وكلمه .

كما غدت تلك المجالس أيضا ، مهوى أفئدة الكبراء والأمراء وأصحاب الوجاهة ، يلتمسون لدى صاحبها شفاعة فى أمور دنياهم ، أو تودداً للجماهير وزلفى لديهم ، فقد أصبح الشعرانى زعيما شعبيا مرهوب الجانب ، كما غدا صاحب صوت وكلمة عالية فى مصر ، ومطاعة فى استانبول ، عاصمة الإسلام ومقر الخلافة التى تدين لها مصر بالتبعية والولاء .

ولا يخلو الأمر أيضا من التماس بركات هذا القطب ، القطب الذى بزغ نجمه وتلألأ وأخذت الدنيا تمتلىء وتفيض بالأحاديث الساحرة عن نفحاته وعجائبه .

الشعرانى والخليفة

وجاء السلطان سليم خليفة العالم الإسلامى إلى مصر زائرا ، فكان يومه عيدا ، وكانت أيامه بمصر تاريخا ، وكان القرب منه أو التشرف برؤيته عزاً وجاهاً ومطلباً عاليا .

وحف به الأمراء ، ولاذ به الكبراء . وهرع إليه العلماء والفقهاء ، يأملون فى القبول ويرفعون آيات الولاء .

وبقى رجل واحد ، لا يسعى إلى أمير المؤمنين . ولا يمشى فى الركاب ولا يحنى رأسه . تلك الانحناءات الذليلة التى عرفت فى المراسيم التركية .

وارتفع همس إلى السلطان سليم بتخلفه . وتضخم الهمس فغدا دوياً . فاسم الشعرانى يزاحم الشمس ، فلا يمكن أن يختفى . ولا يمكن أن يتوارى ولا يمكن ألا يلمس الزائر العظيم تخلفه .

وحدثت الكرامة ، أو حدثت الآية التى طالما أكرم الله بها رجاله وعباده الذين عفوا عن الدنيا ، فسعت إليهم الدنيا .

أجل لقد سعت الدنيا . سعت الخلافة التركية بجلالها وبهائها الى الرجل العابد القانت المتواضع المعرض عن الدنيا وأساليب الحياة .

سعى الخليفة العظيم ، الى الصوفى العظيم ، فكان ما بينهما رمزا الى الدنيا والآخرة ، وبين دهشة الحاشية وعجب الأمراء وذهول العلماء والفقهاء التمس السلطان سليم طريقه الى الشعرانى .

وكان يوماً عظيما تاريخيا للرجلين الكبيرين ، ومن هذا اليوم لم يستطع حاكم فى القاهرة أن يعصى للشعرانى أمرا أو يرد له طلبا .

وكان القضاء فى مصر خلال تلك الحقبة من التاريخ . للقاضى محي الدين

عبد القادر الأزبكي ، وكان فى طبعه حدة فاصطدم بنائب السلطان سليم على مصر فأهدر النائب دمه وخصص جائزة لقتله .

واختفى القاضى طويلا حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وضاقت به حياته انطلق إلى الشعرانى شاكيا لائذا وتعهد للشعرانى أن يقيم مسجداً لله . إن أنقذه الله من شر خصمه ونجاه من تلك المحنة .

وابتسم الشعرانى وتناول عوداً رفيعاً من الأرض وقال له اذهب فالق الحاكم بهذا العود ، ولا تخشى سوءاً ولا شرا .

فتردد القاضى وأذهله هذا الامر ، فقد تشفع له الأمراء والسادة فلم تقبل شفاعتهم فكيف يستجيب الحاكم بعد ذلك ، ولا شفاعة اليوم ، ولا وساطة ، الا عود صغير من الشيخ .

ولاحظ أتباع الشيخ تردده فثار ثائرهم ، وهتفوا به اذهب وسترى عجبا فالشيخ لا يمزح وان بدا الأمر شاذا غريبا ، وأسرار الشيخ ونفحاته لا تنكر ولا تجحد ، ومضى القاضى على وجل للقاء الحاكم حتى إذا دنا من مجلسه ألقى العود أمامه . وبين عجبه ودهشته ، خف الباشا لاستقباله والاحتفاء به ، وأعاده الى منصبه وأصدر أمرا بالعفو عنه .

تلك رواية كتب المناقب ، وفى رواية أخرى ، أن الشعرانى التمس من السلطان سليم العفو عن القاضى المهدر الدم فأجاب طلبه وقبل شفاعته .

وسواء كانت الرواية الأولى أو الثانية ، فقد غدا القاضى يدين بحياته للشعرانى ، ويدين أيضاً ببناء مسجد لله يخصص للشعرانى ولمجالسه العلمية والتعبدية

وابتاع القاضى أرض فضاء فى أطراف حى باب الشعرية ، ليقيم فيها المسجد الذى وعد به ، وقبل أن يبدأ القاضى فى البناء عدا أحد الأمراء الأتراك على الأرض فاغتصبها واعتزم أن يقيم عليها بيتاً له .

وتصدى للأمير التركى رجل من أصحاب الأحوال ، فأنذره بسوء العاقبة إن لم يترك هذه الأرض التى قدر لها أن تكون مسجداً لله ومقراً للشعرانى حياً وميتا

وضحك الأمير التركى ، وأعلن لحاشيته وسط السخرية اللاذعة ، أنه لا يؤمن بالمجاذيب ولا يعتقد فى الكرامات . وأن الاهتمام بمثل هذه الأمور صغار لا يليق بالسادة الأمراء .

ومضى ركب الحياة . فإذا بالشلل يأخذ جسد الأمير بعد أيام . ثم يسلمه للموت . ولم يمض أسبوع واحد على هذا العدوان .

وأسرع القاضى محي الدين إلى الأرض . فشاد عليها مسجداً عظيما فخما واسع الرحاب . هو المسجد الذى عرف فى التاريخ باسم مسجد الشعرانى وابتنى فى المسجد زاوية انتقل إليها الشعرانى بأهله . بعد أن جعلها القاضى وقفاً عليه وعلى أسرته ، وغدت الزاوية بعد ذلك جزءاً من تاريخ الشعرانى لأن بها كانت أعظم أيامه . ولأنها غدت من أعظم مراكز العلم والتعبد فى العالم الاسلامى .

وحفر البناؤون كثيراً من الآبار لهذه الزاوية ولكنهم لم يعثروا على الماء فطلب الشعرانى من شيخه ، نور الدين الشونى ، حلا لهذا الأمر . والشونى يتحدث عنه الرواة بأنه كان يجتمع برسول الله صلوات الله عليه يقظة ومناماً .

وبعد أيام جاء نور الدين الشونى ليقول للشعرانى : بأن البئر يجب أن تحفر فى مكان حدده وعينه . وقال إن هذا بناء عن إذن من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وحفرت البئر . فكان ماؤها سلسبيلا عذباً ، حتى لقد تطايرت الشائعات بأن ماءها يتصل ببئر زمزم وأقبلت الجماهير عليها التماسا لبركات مائها وأسراره

زاوية الشعرانى

لعبت الزوايا والمساجد فى تاريخ الإسلام دوراً كبيراً خطيراً ، فقد كان المسجد مكتبة ومدرسة ومصلى ، كان معهداً لتربية العقول ، ومعبدا لتطهير القلوب ، بل لقد كان مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى المدينة ، كلية حربية يتعلم فيها الصحابة تحت رعاية نبيهم القتال ، من ضرب الرماح إلى رشق السهام .

والذين تربوا تحت ظلال المساجد فى تاريخ الإسلام ، هم علماؤه ، وفقهاؤه ، بل وفرسانه ومقاتليه أيضاً .

ولقد خطا أحمد بن طولون خطوة أخرى فى واجبات المساجد ، فألحق بمسجده الكبير صيدلية تداوى المرضى ، وتوزع الدواء بالمجان على الفقراء والمحتاجين ، وبذلك غدت المساجد محور القوى الروحية والفكرية والبدنية فى العالم الاسلامى ، وهل ينسى تاريخ الإسلام ، بل تاريخ الحضارة العالمية الأعمال الخالدة ، التى حققتها المدارس ، الكاملية ، والنظامية ، والطولونية والأزهر .

فمن تلك المساجد . شعت أنوار المعرفة ، التى حملت للعالم أزكى الحضارات وأطهر الدراسات . أنوار المعرفة التى صاغت العقول الإسلامية وأضاءت لها الحياة أكثر من عشرة قرون ، ومكنت للقوة الإسلامية فى الأرض حتى كانت . وحدها صاحبة القول الفصل فى شئون الكوكب الأرضى .

وزاوية الشعرانى ، كانت فى القرن العاشر الهجرى منافساً خطيرا للأزهر بل لقد كانت الناحية التعبدية فيها ، أكبر مايطيق الأزهر ، وكانت سبل العيش لطلابها أيسر وأهنأ ، وزاوية الشعرانى جزء لا يتجزأ من تاريخه . بل إن تاريخه ليفقد جانباً مضيئاً ساحرا لو أهملنا الحديث عنها .

والحديث عن زاوية الشعرانى ، يترقرق ويتشعب لمن يريد أن يحيط

بألوانها وصورها ، بل هو حديث فى حاجة إلى كتاب خاص ، ودراسة مستقلة ، فلقد نهضت تلك الزاوية بما يساوى جهد وزارتين من الوزارات التى نعرفها . أعنى وزارتى الشئون والمعارف .

ونحن هنا نحاول أن نعطى صورة سريعة لحياة الشعرانى داخل زاويته ، وصورة سريعة لأثرها فى المجتمع المصرى .

حول الشعرانى الزاوية التى بناها له القاضى محيى الدين ، إلى رباط للعباد ومدرسة للعلم والتعليم ، وزاوية للصوفيين المتجردين ، ومسجد للصلاة وإقامة الشعائر . وتكية للفقراء والمحتاجين ، وكان هو قطب الرحى لتلك الحركة الدائبة

ولقد أوقف عليها القاضى محيى الدين ، أوقافا وأرزاقاً ، كفلت الحياة لموظفيها من المؤذنين والفقراء ، والأئمة والخطباء .

ولكن الحياة قد اتسعت داخل الزاوية . فقد كفل اسم الشعرانى لزاويته مكانة عالية فأقبل عليها الراغبون من كل حدب ينسلون .

أقبل عليها الأمراء والسادة ، يوقفون عليها أملاكهم وأموالهم ، ويقدمون إلى طلابها المنح والهدايا ، على اختلاف أنواعها .

وأقبل عليها آلاف المريدين والطالبين للعلم من الفقراء الذين أعسروا فلم يستطيعوا طلب العلم ، بل لم يستطيعوا الحياة الكريمة ، فكفل لهم الشعرانى داخل زاويته العلم ، العلم بشقيه من تثقيف وتعبد ، كما كفل لهم الحياة الكريمة بأوسع معانى تلك الكلمة .

حتى لقد أفسح للمتزوجين منهم مكانا فى زاويته . يقيمون فيه مع أولادهم وزوجاتهم طاعمين كاسين متمتعين ، لا يحملون من هموم الرزق كثيرا ولا قليلا ما داموا قد انقطعوا للعلم . وما دامت أخلاقهم وعاداتهم مما يرضى عنه الله ولقد بلغ عدد طلاب الزاوية فى أول أمرها مائتين بينهم تسعة وعشرون كفيفا

ويحدثنا التاريخ حديثا عجبا عن ميزانية تلك الزاوية . وعن الخيرات والنعم التى تجرى فى ساحاتها فلقد كان يعد لطلابها من الخبز كل صباح أردبا وثلث الأردب من أنقى أنواع القمح .

أما ميزانيتها عن عام : فعشرة قناطير من عسل النحل . وعشرين قنطارا من عسل القصب . وأربعين أردبا من الفول ومن الكشك سبعة . ومن الأرز مثلها . ومن البسلة والعدس خمسة وعشرين أردبا ... وهكذا .

فإذا أقبل العيد . عيد الفطر . كانت ميزانيتها من الكعك خمسة أرادب غير الهدايا . ومن الجوز والبندق والخروب و لتمر والزبيب والتين ما قدر بخمسة قناطير . ومن الفواكه شىء لا يقع تحت حصر ويكفى أن نذكر أن ميزانية الزاوية من البطيخ فى العام كانت أكثر من ألفين .

ولم يقتصر الأمر على هذا النعيم فقط . بل شملت رعاية الشعرانى مريديه وتلامذته فى أوسع الآفاق . فهم أبناؤه وأحبابه فى الله ومن حقهم عليه أن يدبر أمورهم كافة . ومن تدبير أمرهم أن ينظر فى أمر استكمال دينهم . ومن كمال الدين الزواج . ولهذا زوج الشعرانى فى زاويته أربعين رجلا من مريديه قام عنهم بالمهر ونفقات الزواج . وحرص على تزويد زوجاتهم بكل شىء يخطر على العقل من شئون النساء ولوازمهن . حتى اللبان الشامى والحجازى والشمع والخضاب وغرائب أنواع الزينة وألوان العطور وأدوات التطرية والتجميل .

ومن كمال الدين الحج إلى بيت الله . ولهذا أرسل الشعرانى أفواجا من تلامذته إلى الأرض المقدسة باذلا فى سبيل راحتهم والعناية بأمرهم مثل ما بذل فى أمر زواجهم . من الاهتمام العجيب بكل دقيقة وصغيرة مما يدل على شفافية ذلك الروح الكبير .. الذى شمل حبه وحنانه كل من أحاط به أو لاذ برحابه .

ولم تقف مكارم الشعرانى عند هذا الحد . بل تحدثنا كتب المناقب بأنه كان يقوم بتزويد العلماء والفقهاء والمشايخ فى مصر وغيرها بالغذاء والكساء والماء . حتى لكأن كل فقير من أهل العلم أمانة فى عنقه . ويحدثنا الشعرانى بأنه قد كسا بالثياب عدداً لا يحصيه عد ولا يحيط به حصر من الشيوخ الفقراء آلافاً مؤلفة .

أما ضيوف الشعرانى ورواده فى زاويته ، والذين قدروا فى كتب التاريخ بحوالى مائة زائر يومياً فقد كان الشيخ معهم سخى اليد سخى القلب سخى العاطفة .

ومع هذا العبء العظيم ، وهذه النفقات الطائلة التى حملها الشعرانى ، لم يغض نبع الخيرات فى زاويته ، بل كان دفاقا جياشاً دائماً ، وفى وسط هذا النعيم والخير المقيم ، كان الشعرانى يعيش يومه على جرعة من ماء وتمرات يقمن صلبه

تلك هى الناحية المادية من زاوية الشعرانى ، أما الحياة الروحية فيها ، فهو الوجه الأكثر وضاءة وإشراقا ، فلقد تحدث مؤرخوه من معاصريه بأن زاويته كانت أعظم المنارات العلمية والتعبدية فى العالم الإسلامى خلال القرن العاشر الهجرى .

فلقد كان الشعرانى أوسع أهل عصره علما ، وأعلامهم كعبا فى التصوف والنفحات اللدنية . كما كان ذروة فى التعبد والخلق لا تطاولها ذروة ، وبتلك العملاقة العلمية والروحانية التعبدية ، طبع الشعرانى زاويته وربى مريديه وتلامذته ، فدرسوا على يديه العلوم الشرعية على اختلاف أنواعها وتلقوا منه المعارف الصوفية على اتساع آفاقها وشمولها ودقائق أسرارها ومكارم أخلاقها .

وكان قراء القرآن الكريم فيها ، يواصلون القراءة ليلا ونهاراً . حتى

لا تخلو الزاوية دقيقة واحدة من قراءة القرآن .

وبجوار قراءة القرآن ، المجالس العلمية ، فلا يفرغ قارىء فى الحديث ، حتى يبدأ قارىء فى التفسير ، وما ينتهى حتى يشرع ثالث فى قراءة التصوف ولا ينتهى حتى يليه قارىء فى الفقه . وهكذا آناء الليل وأطراف النهار من غير انقطاع .

ويحدثنا المناوى وصاحب طبقات الشاذلية : بأن الناس كانوا يسمعون لزاويته دويا كدوى النحل ليلا ونهاراً .

وبجوار هؤلاء وهؤلاء ، كان العباد والذاكرون المنقطعون للذكر والعبادة حتى ليقول الشبلى المؤرخ : بأنه لم ير فى مشارق الأرض ومغاربها خيرا من زاوية الشعرانى ، علما وفضلا وتصوفا وأدبا .

ولقد أخرجت تلك الزاوية الخالدة أعظم علماء القرن العاشر الهجرى وأكبر متصوفيه . لقد كانت زاوية خالدة ، وكانت زاوية الخالدين .

إلى المـلأ الأعلى

حدثنـا الشعرانى عن سلوكه إلى الله على يد شيخة الخواص . وكيف أجلسه الخواص فى محاريب الطهارة والتعبد، وأخذ عليه العهد ولقنه الذكر. وأعطاه الورد وأخلاه عما سوى الله وانبأه بأن الفتح الإلهى والهبـــات الربانية اللدنية ستكون بدايتها فى مكان معلوم مقدر بروضة المقياس على شاطىء النيل .

ثم حدثنا عن أحاسيسه القلبية فى أيام ترقبه وانتظاره ، وكيف تسللت العلوم الوهبية إلى قلبه فكتب منها ما شاء الله أن يكتب ، ثم عرضها على شيخه فأنبأه بأنها لا تخلو من علوم ظاهرية ، وطلب إليه محوها ، وانتظار علوم أكثر صفاء وثباتا .

وتكرر الأمر بينه وبين شيخه ، حتى جاء الفتح الإلهى ، وكانت بدايته أن الهم علم آداب العبودية فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة .

فلما عرض ما وهبه الله له فى هذا اليوم على شيخه ، قال له . «تم أمرك وعلا شأنك ، وروى قلبك ، فابق على ما تكتب » فسجل الشعرانى فتوحاته الأولى فى كتابه « الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية » .

وتوالت المنح والفتوحات على الشعرانى ، فقد تم أمره وعلا قدره وروى قلبه ، وآن له أن يهب الفكر الاسلامى . شيئاً عما منحه الله فانطلق ينثر علومه فى مجالسه العلمية ، ويجعل من زاويته منارة عالية . ومحفلا من محافل العلم الكبرى ، ومنهلا عذبا سلسبيلا للأمة المحمدية .

ثم أقبل الشعرانى على التحرير والتأليف ، فى شتى فروع المعرفة حتى وهب المكتبة الاسلامية أكثر من مائة كتاب فى التصوف والفقه والأصول والتفسير والحديث والنحو والطب والكيمياء والأخلاق وغيرها من ألوان العلوم

والمعارف ، وقد استغرق بعضها خمسة مجلدات ؛ ووقع الكثير منها في مجلدين وأكثر هذه المؤلفات لايزال مخطوطا وموزعا على دور الكتب في أرجاء العالم.

ولقد أحصى المستشرق « بروكلمان » أكثر من ستين كتابا مخطوطا متناثرة في دور العلم العالمية ، ويذكر لنا على مبارك باشا ، بأن الكتب التي رآها للشعراني أكثر من سبعين كتابا .

وبلغ الشعراني في عصره مكانة علية . حسبنا في الدلالة عليها أن أحد شانئيه كتب سؤالا عن فقرات وردت في كتاب « العهود المحمدية » للشعراني وقدمه إلى شيخ الإسلام الفتوحي الحنبلي. فامتنع الشيخ الفتوحي عن التعليق عليه . قائلا « إن الشعراني قد أحاط من العلم بما لم نحط به . وقد قرأ من الكتب مالا نعرف له اسما ، وأنه لو أدعى تأليفها ماوجد في مصر منازعا » تلك لمحة عن مكانة الشعراني الذي قال له شيخه الأكبر على الخواص « تم أمرك وعلا شأنك . وروى قلبك » .

وكان من تمام الأمر للشعراني . أو من تمام المقابلة في حياته . أن مكانته العلمية . مشت جنباً إلى جنب مع مكانته الدنيوية .

فقد أصبحت زاويته تسهم بنفوذها في توجيهات الحكم في مصر . بل وفي الأمبراطورية التركية بأسرها .

وبلغ من اعتزاز الشعراني بمكانته الدينية . أن يأتي إليه الوزير الأعظم على باشا قبيل سفره إلى تركيا . ليقول له «نحن مقربون للخليفة فهل لك من حاجة ترفعها إليه » فيهتف الشعراني غاضبا « ألك حاجة عند الله ؛ إننا مقربون إلى حضرته » .

ونرى حاكما من حكام مصر . هو الأمير حسن بك صنجق يتتلمذ على الشعراني ثم يقبل على حبه ويقبل على درسه . حتى يلازمه في زاويته ليلا ونهاراً تاركا الإمارة والحكم .

ولكن الشعراني لا يرضى عن تلك الصحبة لأن فيها استخفافاً بمصالح الرعية وهي أمانة في عنق الأمير . وواجبه الأول أن يتخصص لها . ويتفرغ لشئونها .

ولكن حب الأمير لشيخه الشعراني . كان أكبر من حبه للامارة وجاهها . والحكم وسلطانه ونفوذه . فعز عليه وكبر لديه أن يفارق الشعراني ومجالسه وما فيها من أنس وعلم وتقوى ، فاعتزم أمراً عجباً . سره الأكبر يلتمس لدى التصوف والمحبة في الله .

وفي اليوم التالي تجلى هذا الأمر . فمع الشمس فرق الأمير أمواله . وأعتق عبيده . وأوقف أملاكه على وجوه الخير وأستبقى من هذا الثراء العريض رخام بيت من بيوتاته . وكان تحفة نادرة . وقليلا من المال . أما الرخام الفخم النادر والمال القليل . فقد اعتزم الأمير أن يبني بهما ضريحاً ومزاراً لشيخه الشعراني وفاء وحبا .

وأقبل الأمير على أستاذه . فقيراً متجرداً ليسلك على يديه طريق الهدى واليقين . بلا عائق من حكم ولا مانع من أمارة .

وبكى الشعراني . فها هو رجل يترك من الدنيا شيئاً لم يتركه الشعراني ويزهد زهداً يتضاءل حياله كل زهد . ثم طلب من تلميذه أن يتريث قليلا في بناء الضريح حتى إذا أحس الشعراني بأن ساعة صعود روحه إلى باريها وهاديها قد دنت طلب من الأمير أن يقيم الضريح الذى اعتزم إقامته .

ولما شيد الضريح وارتفعت منارته . وانتهى البناؤون من آخر قطعة فيه في نفس اللحظة . انعقد لسان الشعراني وجمدت أطرافه فقد استوفى أنفاسه .

وكانت وفاته في الثاني عشر من جماد الأول سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للهجرة وكانت آخر كلماته . أنا ذاهب إلى ربي الرحيم الكريم .

رسالة التصوف

الشعرانى . والروح الصوفى

تكلمنا عن حياة الشعرانى وما اتصل بها أحداث تاريخية ، ونحاول الآن أن ندرس ما تركه للفكر الإسلامى من علوم ومعارف ، وما تركه للروحانية الإسلامية من جولات صوفية ، ومعارف لدنية ، وما كان لهذا وذاك من أثر فى توجيهات الحياة الإسلامية العقلية والعلمية .

والشعرانى لسان صدق من ألسنة التصوف التى أبدعت آياته الكبرى ومنارة من مناراته العظمى . التى قامت على مفترق الطرق الروحية والعقلية ترشد السائرين إلى الله ، وتهدى الحائرين المتعبين إلى شواطىء السلام واليقين

وله بعد ذلك فى التصوف رسالة ما أحسب أن أحداً — باستثناء الغزالى حمل أعلامها أو جاهد فى سبيلها . مثل ما حمل الشعرانى وجاهد .

وتلك الرسالة ، هى تنقية التصوف من الدخيل والدخلاء ، وتجليته نهجاً إيمانياً تعبدياً خالصاً لله ، هدفه الطاعة الكاملة ، والعبودية الصادقة ، والمحبة الروحية بأنوارها وآدابها السامية لا يعرف الجدل ولا الحوار ، ولا يقر الشطح والسبح الفلسفى ،

وربط المعارف الصوفية اللدنية ، بالعلوم الإسلامية الظاهرية ، والخروج بالأمة الإسلامية من الجدليات والخلافات ، إلى روح الدين وجوهره ، إلى اليقين الثابت . والعمل الصالح والوحدة القلبية والفكرية وإقامة أسس الحياة على الرحمة والمحبة . لا على الشقاق والجدل البغيض .

والشعرانى ككل المتصوفة . مفتاح شخصيته فى تصوفه وروحانيته ، فالشخوص الصوفية . قد يتراءون أشباحاً باهتة الظلال للعين المادية ، وقد

يتراءون فى عدسات الباحثين المنطقيين فى أردية السذاجة والبساطة حينا . وفى أردية الغموض والابهام أحيانا .

ومرد هذا ارتفاعهم الروحى الحائل عما ألف الناس واعتادوا من ألوان وأخلاق وعما ألف الناس واعتادوا من معارف نظرية وعقلية ، ولهذا تخطئهم العين المجردة ، كما تخطئهم العدسات المادية .

إننا فى حاجة إلى عدسات روحية خاصة حينما نتعرض لتلك الأرواح كما نحتاج إلى مكبرات خاصة حينما نتطلع إلى نجوم السماء .

فقوة المتصوف العظمى ، إنما تكمن فى روحه . فكلما اقتربنا من دائرته الروحية تجلت لنا آياته . وتجلت لنا شخصيته وتجلت لنا عملاقيته الروحية والعلمية . لأنهم شخوص كونتهم العقيدة وصاغتهم الروحانية ولهذا نقترب من فهمهم ونقترب منهم ، كلما اقتربنا من التصوف ومن فهم التصوف .

واذن فلا بد لدارس شخصية الشعرانى من أن يتحدث عن التصوف ، فالحديث عن الروح الصوفى . هو المدخل لدراسة كل متصوف اسلامى .

ودارس التصوف الإسلامى ، يرى نفسه بادىء بدء ، وسط أمواج صخابة ، وبحار زاخرات . بل وسط دوامة مفرغة الحلقات ، لا يجد لعبابها شاطىء ، ولا من نوتها عاصم .

فقد امتلأ موكب التصوف بالدخلاء من كل نحلة ولون ، كما دست على المعارف الصوفية عقائد تكاد تتمثل فيها عقائد الكوكب الأرضى كافة .

وطريق البحث بعد ذلك ليس معبدا بل ليس آمنا . فالباحث يجد أمامه مزاجا عجبا من الأخبار المتشابكة المضاربة التى امتزج فيها الحصى بالجوهر وامتزجا أحيانا حتى يحتاج الدارس إلى معمل فكرى للصهر والتمييز .

وما يجده الباحث من حر الجواهر إنما يجده متناثرا لا يكون وحدة

فكرية ، ولا يقيم مبحثا علميا متناسقا . فهو محاجة إلى صبر مدده من عند الله ، حتى يستطيع أن يؤلف بين هذه الأجزاء ويرد كل جوهر إلى عقده ، حتى يستقيم البحث ، وحتى يتجلى جمال اللؤلؤ المكنون .

وكثيراً ما يجد الباحث نفسه أمام ألوان فلسفية مادية . وألوان من التأملات الجامحة ، وألوان من الشطحات المضللة ، أدخلت على التصوف ، وهى ليست من روحه ولا من عقيدته . وأعسر من هذا وأشد قوة . أن هذه الألوان قد دسها المغرضون والمزيفون فى كتب الأئمة والقادة من رجال التصوف . ومشى هذا التزييف على التاريخ حتى أصبح جزءاً منه .

وكتب المناقب التى عنيت بالتصوف ورجاله كثيرة ومتنوعة ، ولكن كثرتها لا تهدى السبيل ولا تنير الطريق . إذ أنها طوائف من الأخبار تسودها المبالغة حينا . والاضطراب أحيانا ، ويجرى فيها الدس والتزييف تارة والابهام والغموض تارة أخرى .

وتأتى بعد ذلك دراسات المستشرقين . الذين ساهموا بقصد أو بغير قصد فى تشويه التصوف وتغيير وجهه . لأنهم اتجهوا بدراساتهم إلى ألوان من التصوف لا تعتبر من صميمه ولا تعبر عن شخصيته ، اتجهوا إلى السبحات الفلسفية ، والشطحات القلبية ، وهو لون دخيل على التصوف لحق به فى إحدى مراحله المتأخرة ، حينما انتقل من القلوب إلى العقول ، ومن التعبد إلى التأمل حينما أصبح التفلسف لا الإيمان طريقاً إلى الله ، وطريقاً إلى المعرفة . وحينما انصرف بعض المنتسبين إلى التصوف إلى نظريات فى الوجود ونظريات فى المعرفة لا يعترف بها الإسلام ولا ترضى عنها الأذهان الصوفية المؤمنة .

ثم جاءت فى أعقابهم كتب المؤرخين المعاصرين من رجالنا . فاذا بهم يجرون فى أعقاب أساتذتهم من رجال الاستشراق ، وإذا بهم يقعون كما وقع أساتذتهم فى أحابيل خصوم التصوف القدامى الذين دسوا عليه

وزيفوا ألحانه . وإذا بهم أيضاً يعنون بالشكليات ويغرمون بالشاذ من الآراء ويولعون بابراز الكلمات المهزوزة . كما أولع الأوربيون بها من قبل. الكلمات المهزوزة التي استنبطوا منها تارة فكرة الحلول والاتحاد . وتارة نظرية وحدة الوجود. وإذا بهم يتحدثون أيضا كما تحدث شيوخهم عن الصلات بين التصوف الاسلامي والوثنية الهندية . والتصوف المحمدي والروحانية المسيحية .

ودارت أقلامهم في هذا المجال وتشعبت بهم السبل . حتى أسلمتهم إلى نظريات وصور . قد تنتسب إلى كل نحلة عرفها العقل الإنساني ماعدا النهج الرباني الإسلامي .

وأغفلوا تماما جوهر الإسلام وروحه . وهما أبعد ما يكونان عن هذه الألوان والصور . ولم ينظروا إلى منابعه المحمدية . وعقيدته القرآنية وأخلاقه المثالية وتعبداته السامية . وتراثه في المعرفة . وهو أصدق صور الإيمان المحمدي . وأعلى ذرى الهدى القرآني .

فهي إذن محاولة جريئة وشاقة تلك التي نحاولها، إذ نحاول تنقية التصوف مما دس عليه وألحق به . وتمزيق الحجب التي توارت خلفها أنواره واختفى في طياتها بريقه وسناؤه . حتى نجلوه ربانيا إسلاميا خالصا . كما عرفه الأولون الذين عاشوا في محاريبه ومعابده وأنواره ومعارجه .

ولقد شهد التاريخ محاولات سابقة في سبيل هذه الرسالة العليا ، فلقد قام حجة الإسلام الغزالي في القرن الخامس الهجري ، بحركته الاصلاحية الكبرى في سبيل تجديد التصوف وتنقيته من الألوان الفلسفية التي دسها عليه خصوم الإسلام من أصحاب المذاهب الباطنية ، ومن الدجل الشعبي الذي أدخله عليه جهلة العوام وبعض طوائف المتحررين من الأخلاق ،

كما قام بهذه الرســـالة العظمى بقوة ونجاح القطب الشعرانى فى القرن العاشر الهجرى .

ونحن اليوم فى حاجة ملحة إلى تصفية جديدة ، وتنقية جديدة ، وحركة تجديدية أخرى . نحن فى حاجة إلى جهود متوافرة لدراسة التصوف وتنقيته من الشوائب ، ومما زور التاريخ ، ومما أدخل الرواة ، ومما دس عليه ونسب إليه وحف بروحه وتعلق بأرديته حتى نرده إلى فطرته الأولى فنرده إلى القلوب إيماناً ، وإلى الأخلاق طهارة ، وإلى المثالية عنواناً ورمزاً ، بل إلى الإنسانية بأسرها سلاما وسعادة وأمناً .

وإنى لكبير الأمل ، فى أن تكون تلك الدراسات التى نقدمها هنا ، بداية موفقة لتلك الحركة المباركة . أو على الأقل منظاراً يرشد إلى طريقها ، ويهدى إلى سبلها .

التصوف الإسلامى

والمعارف العالمية

والتصوف الإسلامى هو أعلى قمة حامت حولها المحاولات العالمية للكمال الروحى والمعارف اللدنية حامت حولها الجهود العالمية ، ولا أقول بلغتها ، لأن سبل الكمال الروحى قد تعددت بتعدد الفلسفات وتعددالوسائل والغايات ، فقد حاول قوم أن يقبسوا من نورهذا الكمال بالتصفية والتخلية ، كرجال الفلسفة شراقية ، وحاول قوم أن ينالوه بالنسك والطهارة كزهاد اليوجا الهندية . وحاول آخرون أن يبلغوه بالاستغراق والتأمل ،كأصحاب المذاهب النظرية والفلسفية .

وعدة هؤلاء وهؤلاء لبلوغ هذا الكمال ، جهد بشرى وسبل ابتدعوها ومذاهب اعتنقوها وعاشوا لها ، وهى وان وصلت بهم إلى ألوان من هذا الكمال . إلا أنها ألوان مستعارة لا أصيلة . لأنها منحرفة الغاية . وان استقامت الوسيلة .

وقد ترقى أرواح هؤلاء وهؤلاء . حتى تأتى بمايشبه الالهام ، وبما يشبه الخوارق والكرامات . إلا أنها قد تضل وتشقى ، لأنها اقتبست هداها من داخلها . ولم تقتبس هداها من خالقها وموجدها .

أما التصوف الإسلامى ، فقد تتشابه وسائله فىالزهد والنسكوالتصفية والتخلية والتأمل والطهارة ، مع هؤلاء ومع هؤلاء . ولكنه تشابه عرضى وتقارب شكلى . لأن التصوف الإسلامى ليسمذهباً منمذاهب الفلسفة ، وليس نحلة من نحل الزاهدين والمتأملين وليس هدفه من تلك الوسائل ماتهدف الفلسفة من كمال عقلى . وطاقة نظرية وما ينشده الزهاد والنساك من اطلاق لقوى الروح . حتى تأتى بالعجائب والغرائب .

وإنما التصوف الإسلامي هو كمال في العبادة . وكمال في الطاعة . وكمال في العبودية . هو محبة لله . وعمل على رضاه ، وأمل في نجواه ، هو أنشودة يشترك فيها القلب والروح والحس والجوارح . أنشودة تسبح بحمد الله لا تفتر ولا تهدأ لأن لحنها دائم الحياة في القلب . دائم الحياة في الروح . دائم الحياة في الإدراك والحس .

أنشودة تحيل الكون بأسره إلى آية ربانية . يلمسها القلب كما تراها العين وتسمعها الأذن . كما تدركها الروح . فإذا بكل شيء محراب . وإذا بكل شيء مصلى . وإذا بالصوفي لا يبرح المحراب ولا يفارق المصلى ، أينما توجه بوجهه وسبح بفكره . إنه دائماً مع الله فهو متأدب بأدب من أحس يقينا في كل لحظة بصر . بأن الله معه يسمع ويرى .

وما يأتي بعد ذلك من علم وفيض وما يأتي بعد ذلك من خارقة أو كرامة . وما يأتي بعد ذلك من كمال روحي أو اشراق نفسي . فهو نافلة ، لأنه وسيلة لا غاية . وسلم لا هدف .

فالمعارف الصوفية إذن ثمرة الكمال في العبادة ومنحة الفيض في الطاعة وأنوار القلب في محبته ونجواه . إنها حلى الطريق . لا أساسه وروحه .

وإذن فلا سبيل إلى اقامة صلة من الصلات بين التصوف الإسلامي وبين أي لون من ألوان الروحانية العالمية .

ولا سبيل إلى المقارنة بين المعارف الصوفية الإسلامية وبين المعارف الفلسفية والنظرية والعقلية التي جرت على وجه الأرض مع أعنة التاريخ الإنساني .

فتلك المذاهب الفلسفية والعقلية ، قد استمدت معارفها من التفوق العقلي تارة ، ومن الصفاء الروحي تارة أخرى ، أما التصوف الإسلامي ، فمعارفه نبعها عقيدته الإسلامية ، ومددها فيض رباني داخل نطاق تلك العقيدة القرآنية وبأسرار عبادتها ، وبذلك تحددت رسالة التصوف وعرفت ضوابطها

بينما أعنة المعارف الروحانية الأخرى . لا تقبض عليها يد تتحاكم إليها ، ولم ترسم لها شريعة ترجع لها ولم تنبت معارفها فى حقل إيمانى سماوى يمنعها من النزوات والاندفاعات .

التصوف الإسلامى آية ، سرها فى الهدى القرآنى ، والروحانية المحمدية وإنى لأحسبه أحيانا آية ، كونية . لأنه ضرورة لازمة لهذا الوجود . وغاية من غاياته وحجتنا قوله تعالى . « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

والتصوف هو أكمل صور العبادات فى خير أمة أخرجت للناس . لأنه تطوع دائم للعبادة . تطوع بعد الفرائض والنوافل . ولهذا لم يكن شرعة عامة بل كان ميزة خاصة : لمن أخذ الكتاب بقوة واصطفاه الله وآتاه عزما وعلمه من لدنه علما .

وإذن فلن نغالى إذا قلنا إن قمة المعارف اللدنية التى بلغتها الأجنحة الصوفية الإسلامية لم تبلغها بل لم تدن منها أجنحة أخرى . لأنها قمة المحبة الربانية وهى قمة لا تصل إليها إلا الأجنحة المحمدية المؤمنة العابدة .

الطريق الربانى

والمعارف الإلهيـــة

الكشف الباطنى ، والفيض الربانى ، هما عنوان التصوف الاسلامى وهما المحور الذى تدور حوله المعارف الصوفية كما تدور حوله الخصومات بينهم وبين رجال الفكر من أصحاب المذاهب النظرية والعقلية ، وبينهم وبين رجال العلم الظاهرى من الفقهاء الذين قدسوا القواعد التى ابتكروها للمعرفة وتنادوا بأنها دون سواها . الحكمة وفصل الخطاب .

وأنا أجرؤ فأقول : إنه لا الكشف الباطنى ، ولا الفيض الربانى هدفا من أهداف المتصوفة الإسلاميين ولا غرضا من أغراض العباد الربانيين .

إنما هدفهم الأول عبادة الله . عبادة خالصة له دون سواه ، عبادة تقربهم منه وتدنيهم من رضاه ، وقد تفننوا فى هذه العبادة وجعلوها شرعة ومنهاجا وكونوا من فلسفتها آدابا وأخلاقا ، وسبحوا فى بحارها سبحا طويلا فكانت قوتهم ، وكانت حياتهم ، ومن تلك العبادة كان ذوقهم وكان لحنهم .

والمتصوفة حقا . هم العاملون لا المتكلمون . هم الذين تطوعوا لله فوق الفرائض والنوافل . وترقوا فى هذا التطوع حتى تكونت لديهم حساسية إيمانية . أو طاقة تعبدية . تكاد تدخل فى نطاق المعجزة . حتى إنهم ليراقبوا الله مع أنفاسهم . فكل نفس يخرج من صدورهم ، فهو لذكر الله ، أو استغفار أو تضرع أو نجوى .

وتلك العبادة الدائمة الخالصة أدنتهم من الله وقربتهم فأحبهم وأحبوه . وأنس بهم ، وأنسوا به ، ورضى عنهم ورضوا عنه ، فغمرتهم أنوار المحبة ، وفاضت حياتهم بالنور والسعادة والأنس والقرب . فتكونت لهم فلسفة فى المحبة ، جعلوها شرعة ونهجا . وأنشودة ولحنا ، ومن تلك المحبة . كان ذوقهم

وكان لونهم . ومنها تفرعت مقاماتهم وأحوالهم ، وعليها كان تحليقهم وكانت معارجهم .

ثم أفاض الله عليهم المعارف اللدنية جزاءاً وفاقا . ومنحهم الكشف الباطني هبة وعطاء ورزقهم فوق هذا رزقا أضمروه ، فكان السر الذى ضنوا به حيناً ورمزوا إليه أحيانا ، وسر هذا السر يلتمس عند الأثر المشهور : « عبدى أطعنى تكن ربانياً تقل للشىء كن فيكون » .

ذلك فصل الخطاب فى التصوف . فالكشف الباطنى والعلم اللدنى . والخوارق والكرامات لم تكن هدفا ولا غرضا ولا أملا لدى المتصوفة ، وإنما كانت هبة ومنحة وعطاء ربانيا .

والكشف الباطنى والعلم الربانى . رغم ما دار حوله من جدل وحوار ، ورغم ما أثير بسببه من ملاحات وخصومات ورد به القرآن الكريم ووردت به الأحاديث الصحيحة .

قال تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ، « عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » ، « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » ، « يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا » .

وقصة موسى والخضر معروفة ومعروضة فى القرآن الكريم عرضا مبينا تجلت فيه مكانة العلم اللدنى ، والمعرفة الباطنية التى أوتيها الخضر من لدن ربه .

ووردت هذه القصة فى كتب الأحاديث الصحاح بصورة مجلوة ناطقة بأن العلم لله وحده . ثم هو للانسان عارية ، يمنحه الله لمن يشاء ، نبياً كان أو وليا .

عن أبى بن كعب ، عن النبى صلوات الله وسلامه عليه قال : قام موسى خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ فقال أنا أعلم . فعتب الله عليه

إذ لم يرد العلم الى الله فأوحى الله اليه : إن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : يارب . وكيف به فقيل له ،احمل حوتاً فى مكتل فإذا فقدته فهو ثم . فانطلق وانطلق وانطلق معه فتاة يوشع بن نون ، وحملا حوتا فى مكتل حتى كانا عند الصخرة ،وضعا رأسهما فناما ،فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله فى البحر سربا . وكان لموسى وفتاه عجبا ، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما . فلما أصبحا ، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . ولم يجد موسى مسا من النصب حتى جاوز المكان الذى أمر به فقال له فتاه : أرأيت إذ آوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ، قال موسى ذلك ما كنا نبغى ، فارتدا على آثارهما قصصا . فلما انتهيا إلى الصخرة ، اذا برجل مسجى بثوب . أو قال مسجى بثوبه . فسلم موسى فقال الخضر . وأنآ بأرضك السلام فقال أنا موسى . فقال : موسى بنى اسرائيل ؟ قال نعم . قال :هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ، قال: انك لن تستطيع معى صبرا ، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت . وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه .

ثم روى الحديث بقية القصة كما وردت فى القرآن الكريم . وختام الحديث قوله صلوات الله وسلامه عليه «لوددنا لو صبر موسى حتى يعرض علينا من أمرهما »[1]

الخضر على علم من علم الله . علمه إياه لا يعلمه موسى وموسى على علم علمه له الله لا يعلمه الخضر فالعلم إذن علم الله يهب منه ما يشاء لمن يشاء . والعلم صفة من صفات الله يفيض منه على عباده بنسب حكمتها عند فاطر السموات والأرضين، وسرها عنده من أوحى الى النحل، وأنطق النمل، وألهم الطير تسبيحه يقول تعالى : «كلا نمد هؤلاء وهؤلاء وما كان عطاء ربك محظورا» .

(١) رواه البخارى فى صحيحه .

ويقول الغزالى فى الرسالة اللدنية مفصلا بين العلمين الباطنى والظاهرى ومدللا على شرف العلم اللدنى وسيادته .

« وبيان هذا يوجد فى قصة آدم عليه السلام والملائكة فانهم تعلموا طول عمرهم ، وحصلوا بفنون الطرق كثيراً من العلوم حتى صاروا أعلم المخلوقات وأعرف الموجودات وآدم عليه السلام ماكان عالما لأنه ما تعلم . وما رأى معلما . فتفاخرت الملائكة عليه فقالوا نحن نسبح بحمدك ونقدس لك . ونعلم حقائق الأشياء . فرجع آدم عليه السلام إلى باب خالقه وأخرج قلبه عن جملة المكونات . وأقبل بالاستعانة على الرب تعالى ، فعلمه جميع الأسماء . ثم عرضهم على الملائكة . فقال : أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، فصغر حالهم عند آدم وقل علمهم وانكسرت سفينة جبروتهم فغرقوا فى بحر العجز ! قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا . فقال تعالى : « يا آدم أنبئهم بأسمائهم » فأنبأهم آدم عليه السلام عدة مكنونات العلم ومستندات الأمر. فتقرر الأمر عند العقلاء . أن العلم الغيبي اللدنى أكمل من العلوم المكتسبة » .

وإذن فالعلم اللدنى مقرر فى أصول الشريعة الإسلامية مبين اللحن فى القرآن والسنة المحمدية . ولكن ومن عجب ؟ أن المتصوفة قد هوجموا هجوما عنيفا قاسيا بسببه من العقليين والفقهاء وخاصة فقهاء الحنابلة . الذين كان أمامهم الجليل أحمد بن حنبل من رؤوس التصوف وأعلامه بأخلاقه وتعبداته ولون حياته وهو القائل « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية وإنما هو نور يقذفه الله فى قلب من أحبه وأطاعه » .

وأعجب من هذا العجب أنهم يهاجمون هذا العلم الصوفى فى موقف النقد للمتصوفة . ثم يقررونه فى مواقف أخرى إذا راق لهم الأمر . فابن تيميه وهو رأس تلك الطائفة الناقدة الجرحة يشرح فى رسالته معنى الوحى ثم يعقب قائلا .

« والالهام بالمعنى السالف للؤمنين جميعا يقين » ثم يتحدث عن الفيض الربانى فيقول « وهو لمن أطاع الله واتقاه » ويستشهد على ذلك بالآيات والأحاديث مهللا ومكبرا لحديث أبو هريرة الذى رواه البخارى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « ... ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها » ثم يقول وهذا الحديث غاية الغايات فى الالهام والفيض .

ويقول ابن القيم تلميذ ابن تيميه الأكبر فى كتابه « الوابل الصيب » « الذكر شجرة وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها . فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد » .

وإذن لحتى خصوم المتصوفة قد سلموا بالكشف والفيض والالهام . والمذاهب الروحية العالمية جميعها تؤمن بأن الصفاء الروحى والزهد والأعراض عن مفاتن الدنيا ومباهجها طريقا للمعرفة، وطريقا أيضا للخوارق والهيمنة على عناصر الطبيعة .

يقول الأستاذ العقاد فى كتابه عن غاندى شارحا لصلاة غاندى وأثرها فى تكوينه ومقامها من زعامته .

« وصلاة غاندى هى أعظم شىء فى بنيان عقيدته . فنحن لهذا نقترب من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته، لأن الصلاة عنده لا تنبث عن طلب أو إستغاثة أو ابتهال . ولكنها تنبعث إلى حس فوق الحس وفوق التفكير وفوق الطلب والابتهال ، وهى عنده أعلى مراتب الوعى الذى يتاح للكائن الموجود ، لأن الروح الإلهى فى اعتقاده، سار فى جميع الموجودات ولا يزال الانسان محصورا فى أوهاق الجسد . أو فى أوهاق المادة على العموم . مادام معتمداً على الحواس أو على العواطف أو على التفكير فى ادراك ما حوله . ولكنه يرتق إلى مرتبه من الوعى أعلى من مراتب التفكير عند ما يدرك الروح خالصا منزها من هذه الأوهاق .

فهو لا يصل بالحس إلى شىء أرفع من المادة وقد يرتقى بالتفكير إلى شىء أرفع مما يدركه الحس ولكنه لا يتجاوز به حدود المحسوسات .

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة التعقل المنطقى ، وهى مرتبة التأمل والانقطاع بالوجدان عن كل مايحيط بالإنسان .

فى هذه المرتبة يستطيع الإنسان أن يسيطر على جسده ويسيطر على الطبيعة ويرتقى إلى الحالة التى يقهر بها المادة ويصنع الخوارق ويخالف العادات،

ثم يقول نقلا عن غاندى « إن من يختبر سحر الصلاة قد يستغنى عن الطعام أياما ولا يستغنى عن الصلاة لحظة واحدة ، لأن الصلاة هى من صميم قلب الحياة الإنسانية » .

وإذن فسيطرة الانسان على جسده وقمعه لشهواته وتحليه بالفضائل . والتجائه إلى الله . يتيح له فوق الالهام وفوق المعرفة قوة خارقة يسيطر بها على الطبيعة ويرتقى إلى حالة تقهر المادة وتصنع الخوارق .

يقول الإمام الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » مدللا على صحة الالهام وأثره فى الأرواح .

(لو لم ير الإنسان المغناطيس وجذبه للحديد ، وقيل له ذلك لاستنكره ، وقال لا يتصور عقلا جذب الحديد إلا بخيط يشد عليه ويجذب به . فإنه المشاهد فى الجذب ، حتى إذا شاهده تعجب منه . وعلم أن علمه قاصر عن عجائب القدرة) .

ثم يقول . وفى خزائن القدرة عجائب وغرائب ينكرها من يظن أن لا وجود إلا لما يشاهده ،

وجاء فى كتاب « الفلسفة القرآنية » للعقاد تعليقاً على كلمة الغزالى « وما يقال عن جذب المغناطيس يقال عن جذب الكواكب أو تجاذبها على هذه الأبعاد الشاسعة فى السماء فإن انتقال التأثير من الجاذب إلى المجذوب حقيقة لا ريب فيها ، ولكنها لا تفسر إلا بالفروض والتخمينات ، وتقدير الوسائل التى لا يثبتها العيان ولا يقع بها البرهان .

والعجيب أن أدعياء العلم والعقل يشاهدون هذا وأمثاله ويسمعون تعليله الذى يختلف فرضاً بعد فرض ، وتخميناً بعد تخمين فيسكتون ويسلمون أنه معقول ومفهوم . ولكنهم يستكثرون تأثير الروح فى الأرواح ، وتأثير العقل فى العقول ، لأنهم يريدون أن يلمسوا بأيديهم كيف تؤثر وكيف تتأثر . ولا يقبلون هنا مايقبلونه فى عالم الحس والعيان .

ثم يقول « وأقرب الكائنات إلى الله هو الكائن الذى يعى ذاته ويعى موجده — أى الإنسان — ويستمد منه قبساً من القدرة الإلهية .

أجل لاحيلة لنا فى هؤلاء الناس الذين يؤمنون بعجائب الظواهر الطبيعية التى تبنى على الفروض والتخمينات ، ولا يريدون أن يؤمنوا بمثيلاتها فى عالم الروح ، بل يريدون متعنتين أن يلمسوا بأيديهم قدرة الله الخارقة . ويريدون أن يلمسوا بأيديهم كيف يلهم الله من أحب من عباده وكيف يعلمهم من لدنه علماً . لا حيلة لنا فى هؤلاء وأمثالهم من المتفلسفين على جهالة . إلا أن نقول لهم كلمة شكسبير على لسان هملت « إن السماء والأرض ياهوراشيو . تحويان من الأسرار مالا تعلم به فلسفتك » .

هل تتعارض المعارف الصوفية

مع القرآن والسنة . . .

روى أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى « أن الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه سئل . هل خصكم رسول الله بشىء دون الناس . فقال : لا والذى فلق الحبة . وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه »

وكلمة الامام على كرم الله وجهه مفتاح من مفاتيح التصوف ، أو مفتاح من المفاتيح التى تؤدى بنا إلى فهم حقيقة الروح الصوفى .

لأن عماد التصوف وقوامه فى المعرفة . هو الفهم فى الدين ، والبصر بالتأويل . فهما يعطيه الله لمن ارتضى من عباده . واستنباطا يهدى إليه الله من أحب واصطفى .

وهذا الفهم ، وذلك الاستنباط من منح الله لعباده . فلسنا إذن فى حاجة إلى أن نقول . إن شرطهما هو موافقتهما للكتاب والسنة . فتلك بديهة من بديهات العقول .

فكما أن العبادات فى التصوف قوامها تطوع لما بعد الفرائض والنوافل كذلك علم الباطن هو معان واستنباطات وفهم فى القرآن فوق ما يعطيه العلم الظاهر .

فليس هناك مثلا فهما باطنياً يزيد أو ينقص من الفرائض ، ولا فهما باطنياً يعطل شيئاً من الشرائع وإنما هو فهم فى المعنويات ، وفهم فى الكمالات التعبدية والتحليات الأخلاقية .

يقول الشعرانى فى الطبقات الكبرى :

« ثم اعلم أخى أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها ، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها ، فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا من علة العلل وحظوظ النفس ، كما أن علم المعانى والبيان زبدة علم النحو . فمن جعل علم التصوف علماً مستقلا فقد صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق . كما أن من جعل علم المعانى والبيان علماً مستقلا صدق ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق .

ثم يقول . ولكنه لايشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر فى علم الشريعة حتى بلغ الغاية . ثم أن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء ، فيستنبط فى الطريق واجبات ومندوبات وآداب ومكروهات » .

وتلك الكلمة للشعرانى من الآيات التى توضح موقف التصوف من الشريعة الإسلامية ، ومن الآيات المبينات للنهج الصوفى الصادق .

فليس من رسالة التصوف البحث فى فرائض الأحكام الشرعية . ولا البحث فى الصفات الربانية ولا الجـــدال والحوار فى المعارف الفلسفية والمذاهب العقلية .

وإنمـا التصوف تطوع دائم للعبادة ، وهذا التطوع التعبدى جعل أربابه يستنبطون ألواناً من الأدب يحملون بها أنفسهم وهم قيام بهذه العبودية ، وألواناً من الواجبات فى الذكر والخلوة والسلوك ، وألحانا من المعرفة ترقرقت لهم من مراقبتهم لأنفاسهم وتفتيشهم لقلوبهم وتجلت لهم فى مواجيد الأنس والمحبة ، كما أنهم فرضوا على أنفسهم زهداً خاصاً جعل لهم حساسية

مشرقة وذوقاً ملهما فى طرائق العبودية . لأنهم ينشدون الكمال فى تلك العبودية، ولأنهم آمنوا بأنها هدف الحياة وغاياتها العليا . أو كما يقول الحسن البصرى « إن فى زماننا رجال ينظرون إلى مسائل كأنها شعرة ولقد أدركنا رجالا كانوا يعتبرونها من الكبائر » وكان الامام أحمد بن حنبل يقول « إظهار المحبرة من الرياء » وهو معنى فى التواضع لا يعرفه إلا الأصفياء . ويقول رسول الله صوات الله وسلامه عليه « لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » رواه الترمذى .

ذلك محور التصوف الصادق وتلك دائرته . وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة وأحكامها . كذلك يحفظ المتصوفة للشريعة آدابها وروحها، وكما أبيح للفقهاء الاجتهاد فى استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع . والحكم بالتحليل والتحريم على مالم يرد فيه نص . وترك أمره للاجتهاد والاستنباط فكذلك للعارفين . أن يستنبطوا مما الهموا وعرفوا وذاقوا أحكاماً فى الأمور التى لم ينص عليها . ولهم أيضا أن يستنبطوا آداباً وأذوقا ونهجاً المريدين والعابدين .

فالمتصوف علومه واجتهاداته التى ينفردبها . ولتلك العلوم أثرها ومكانتها ومقامها بداخل حدود التشريع الإسلامى الظاهرى .

ويقول الشعرانى « فمن دقق النظر علم أنه لايخرج شىء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة . وكيف تخرج . والشريعة وصلتهم إلى الله عز وجل فى كل لحظة .

ثم يقول « ولكن أصل استغراب من لا المام له بأهل الله أن علم التصوف من عين الشريعة . كونه لم يتبحر فى علم الشريعة . ولذلك قال الجنيد « علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة دال على من توهم خروجه عنها فى ذلك الزمان أو غيره وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر فى طريق الله

عز وجل إلا من تبحر فى علوم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها . وتبحر فى لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك . فكل صوفى فقيه ولا عكس . وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم » .

صدق الشعرانى . فإنه لا ينكر التصوف إلا من جهله علماً وذوقاً ، ولا ينكر طريق التصوف إلا عويلم ليست له ضلاعة فى العلم . ولا مكانة فى المعرفة ، أما العلماء حقاً من رجال الفقه والاجتهاد والفتيا فقد سلموا للتصوف علماً وذوقاً . سلموا له لا بصدقه فحسب . بل سلموا بالتفوق والزعامة . سلموا له بأنه أفق لا تصعد إليه أجنحتهم لأن لأجنحته تفوق غلاب سره فى تعبدها ، كما أن سر علومه فى الهامها .

يقول القشيرى فى رسالته مدللاً على مكانة التصوف والمتصوفة :

« لم يكن عصر فى مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به ولو لا مزية وخصوصية للقوم لكان الأمر بالعكس » .

ويسوق الشعرانى الأدلة على كلمة القشيرى فيقول « لقد أذعن الإمام الشافعى لشيبان الراعى ، حين طلب منه الإمام احمد ابن حنبل أن يسأله عمن ينسى صلاة لا يدرى أى صلاة هى ، فقال شيبان — هذا رجل غفل عن الله عز وجل فجزاؤه أن يؤدب » .

وكان احمد بن حنبل يرسل إلى أبى حمزة البغدادى دقائق المسائل ويقول افى فى هذا ياصوفى ؟ وكان يقول لابنه ناصحاً وموجهاً . عليك بملازمة المتصوفة ، فانهم بلغوا مقاماً فى الإخلاص لم تبلغه » .

ويقول محي الدين شيخ المتصوفة الأكبر فى الفتوحات « إن طريق الوصول إلى علم القوم الإيمان والتقوى » . ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب « والرزق نوعان روحانى وجسمانى . وقال تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » أى يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بالوسائل من العلوم الإلهية .

ثم يقول فعليك يا أخى بالتصديق والتسليم لهذه الطائفة ولا تتوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة أن ذلك احالة للظاهر عن ظاهره ولكن لظاهر الآية والحديث مفهوم بحسب الناس وتفاوتهم بالفهم . فمن المعلوم ما جلب له الآية أو الحديث ودلت عليه فى عرف اللسان وثم افهام أخرى باطنية تفهم عند الآية أو الحديث لمن فتح الله عليه » .

ثم يقول « ولا يصدنك عن تلق هذه المعانى الغريبة من هذه الطائفة الشريفة قول ذى جدل ومعارضة . أن هذا احالة لكلام الله تعالى وكلام رسوله . فإنه ليس ذلك باحالة . وإنما يكون احالة لو قالوا . لا معنى للآية الشريفة والحديث إلا هذا الذى قلناه . وهم لم يقولوا ذلك . بل يقرون الظواهر على ظواهرها . مراداً بها موضوعاتها . ويفهمون عن الله تعالى فى نفوسهم ما يفهمهم بفضله ويفتحه على قلوبهم برحمته ومنته . ومعنى الفتح فى كلام هؤلاء القوم حيث أطلقوا ، كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح لما جاء به رسول الله من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة . إذ الولى قط لا يأتى بشرع جديد . وإنما يأتى بالفهم الجديد فى الكتاب والسنة الذى لم يكن يعرف لأحد من قبله . ولذلك يستغربه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق . ويقول هذا قول لم يقله أحد . على وجه الذم لهذا القول » .

فالمتصوفة إذن يقولون فى صراحة وجلاء ، إنهم لا يحيلون الظاهر عن

ظاهره بل يقرون الظواهر على ظواهرها . ولا يقولون إن ما ألهموه أو استنبطوه من الآية أو الحديث هو معنى الآية أو الحديث ولا معنى لهما إلا هو . وإنما يقولون هذا ما نرى . أو هذا فتح الله به علينا . ولك أن ترضاه ولك أن ترفضه . ولك أن تؤمن به ولك أن تدعه .

ويقول حجة الإسلام وحجة التصوف الإمام الغزالى .

« واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل والمدعى فيه كثير . ونحن نعرفك علامتين له . العلامة الأولى أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع موقوفة على توفيقاته إيراداً وإصداراً وإقداما وأحجاما . إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها . ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض فان قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور . فاعلم أن هذا عين الغرور . وإن المحققين قالوا ـ لو رأيت إنساناً يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان وهو الحق » .

ثم يقول إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة . وأن سيرتهم أحسن السير وأخلاقهم أزكى الأخلاق . فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة .

وماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها وأول شروطها . تطهير القلب عما سوى الله ومفتاحها استغراق القلب بالكلية فى ذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله » .

أجل ماذا يقول القائلون فى طريقة أول شروطها تطهير القلب عما

سوى الله ، ومفتاحها استغراق القلب استغراقا كاملا فى ذكر الله وآخرها الفناء فى الله حبا وعبادة ، لقد أضفى التصوف على الوجود صورة جميلة مشرقة ، . والبس الانسان صورة نورانية طاهرة ، وجعل للحياة هدفا وغاية قدسية عالية . وأى الغايات أ... على من التسبيح والنجوى ، وفناء النفس فى محارب الانس والتقوى .

يقول سهل التسترى ، أصول طريقنا سبعة. التمسك بالكتاب والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصى ، ولزوم التوبة وأداء الحقوق ،

ويقول أبو الحسن الشاذلى ، إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك . إن الله تعالى ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ولا الالهام ولا المشاهدة ، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغى العمل بالكشف ولا الالهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة ، ويقول أبو سعيد الخراز ، كل باطن خلافه الظاهر فهو باطل ،

هذا هو العلم الباطنى فى التصوف وتلك شرائطه وحدوده ، فبأى آية من آياته يكذب المدهنون . وبأى صورة من صوره يجحد المنكرون .

ويقول الشعرانى متعجباً من خصوم التصوف وأعدائه ، مابلغنا قط عن أحد من القوم نهى أحداً عن الصلاة والزكاة والحج والصوم أبداً . ولا تعرض لمعارضة شىء من الشرائع ، وكيف يترك الولى ما كان سبباً لوصوله إلى حضرة ربه ، إنما يحث الناس على الاكثار من أسباب الوصول فما بقى وجه الانكار إلا على مواجيدهم وأفهامهم ، وتلك أمور لا تعارض شيئاً من صريح السنة ، والأمر فى ذلك سهل ، فمن شاء فليصدقهم ويقتدى

بهم كمقلدى المذاهب.ومن شاء فليسكت، ولا ينكر لأنهم مجتهدون فى الطريق والمجتهد لا يقدح انكاره على مجتهد آخر »

ذلك فصل الخطاب فى حقيقة العلم اللدنى ، وتلك رسالته لدى المتصوفة. إنهم قوم مجتهدون كأئمة المذاهب الفقهية ، فان أئمة المذاهب قد اجتهدوا فى أحكام الفروع واختلفوا . ولم يقدح اختلافهم فى عقيدتهم، ولم يقدح اختلافهم فى اجتهادهم .

فكذلك المتصوفة ، قوم اجتهدوا فى أمراض القلب وأدويتها ، وآداب العبودية وواجباتها وخفايا النفس والهاماتها ، ورقائق المحبة وأسرارها .

قوم أخذوا عقيدتهم بقوة وعزم،فتطوعوا لله تطوع أولى القوة والعزم وأخلصوا التوجه إلى الله اخلاصا جعلهم يتحرون الكمال ، فهم أهله ورجاله. واجتهدوا فى فلسفة الكمال فكونوا من اجتهادهم نهجا لهم وسبلا وطريقا له قواعده ، كما له شرائطه .

وان كان الرجل — الجنتلمان — بلغة العصر . هو الرجل الممتاز بخلق وعادات سامية خاصة، واضحة الأثر فى حركاته ومعاملاته وصلاته،بل هو الرجل الذى فرض على نفسه آدابا وقواعد فى السلوك خاصة به، يتميز بها ويعرف.

فكذلك الصوفى هو الجنتلمان فى العبوديه الربانية . الممتاز بخلق وعادات سامية خاصة واضحة الأثر فى حركاته ومعاملاته وصلاته . بل هو العابد الذى فرض على نفسه فى العبودية آداباً ونهجا يتميز به ويعرف .

فإن كنا رضينا من رجال الدنيا آدابهم التى فرضوها على أنفسهم ، ورضينا من رجال الفقة إجتهادهم فى الأحكام الفرعية ، وإجتهادهم فيما لم ينص عليه ، حتى إنهم حللوا وحرموا ، وقالوا هذا واجب ، وهذا مكروه . وهذا فرض ، وذاك سنة . ولم يقدح اختلافهم فى أحكامهم . ولم يقدح اجتهاد فقيه على اجتهاد مخالفه .

فكيف إذن تعترض على قوم اجتهدوا فى العزائم ، واجتهدوا فى التطوع واجتهدوا فى التعبد واجتهدوا فى تشدان الكمال ، وهم فوق ذلك لم يلزموا غيرهم بما افترضوا على أنفسهم ، بل صرحوا بأنهم أولى عزم ، وليس الناس كلهم سواء ، وما ينبغى أن يكونوا .

إن الفقهاء قد أرجعوا اجتهادهم إلى فهمهم فى كتاب الله وسنة رسوله ، واستنبطوا أحكامهم منهما ، وكذلك المتصوفة يرجعون باجتهادهم واستنباطهم إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إليهما ، فهم والفقهاء إذن فى صف اجتهادى واحد ، إلا أنهم أكمل ، لأن السبل لم تتفرق بهم عن الغاية كما تفرقت برجال الفقه ؟ بل كان سبيلهم واضحاً محدداً محررا ، لأنهم ألقوا بعزائمهم فى نشدان الكمال فى محاريب العبودية والطاعة ، واتجهوا إلى الله سبحانه بقلوبهم وأرواحهم وأحاسيسهم وعقولهم ، فلم تتفرق بهم سبل ، ولم تجمح بهم نزوة .

ومن عجب أن بعض الفقهاء يرمون التصوف بالجموح والتطرف وابتكار ألوان فى المعرفة ، مغرقة فى الخيال ، مغرقة فى الشذوذ ، مع أن الشذوذ والتطرف إن كان فى ثمة طائفة من الطائفتين فهو فى الفقهاء الذين شغلوا أنفسهم وشغلوا العالم الإسلامى معهم عن نور كتابهم المقدس ، بجدليات وتفرعات لا هدف لها إلا الجدل وحب الغلبة .

فقد افترضوا مسائل لا تقع ؟ بل لا يتصور وقوعها ! بل يستحيل فى العقل وجودها ، وعاشوا فى محاربها مجادلين مختلفين .

جاء فى شرح مسلم . ومما زاد الفقه صعوبة ما اتسع فيه أهل المذاهب من التفريعات والفروع حتى إنهم فرضوا ما يستحيل وقوعه عادة . فقالوا لو وطأ الخنثى نفسه فولد هل يرث ولده بالأبوة أو الأمومة أوبهما ؟ ولو تولد له ولد من بطنه وآخر من ظهره ، لم يتوارثا لأنهما لم يجتمعا فى بطن ولا ظهر ،

ويقول السنوسي معلقاً على هذا الجوح الفقهي « ولو اشتغل الإنسان بما يخصه من واجب ، وتعلم أمراض القلب وأدويتها واتقان عقائده والتفقه على معنى القرآن والحديث ، لكان أزكى لعلمه وأضوأ لقلبه .

وإن كان القلم قد جرى بنا إلى نقد الفقهاء ، فإنما ساقنا إلى ذلك المقارنة التي اقتضاها السياق ، ولنبرهن على أن الجموح إن وجد في بعض أدعياء التصوف الذين جعلوا التعبد فلسفة فقد وجد مثله في بعض من انتسب إلى الفقه ، وإن كان الصادقون من الفريقين هم صفوة الأمة الإسلامية .

ونعود فنقول . إن الكشف الباطني في التصوف قائم على الكتاب والسنة . مقيد بهما وإن هدفه وغايته ابقاء الجذوة التعبدية الإيمانية مشرقة وضاءة في القلوب الإسلامية . وبذلك تحددت رسالة التصوف . ووضحت أهدافه .

وإذن فليس الكشف الباطني والعلم اللدني . شطحاً ولا إبهاما . ولاطلاسما ولا كلمات مهزوزة مجنحة ، ولافلسفات جامحة ، كما زور المزورون في تاريخ التصوف ، أوكما جمجم الادعياء الدخلاء الذين مشوا في موكب التصوف وارتدوا بارديته وهم ليس منه .

إن عماد العلم اللدني وضابطه وحاكمه . لدى المتصوفة ، هو كتاب الله وهدى رسوله ، فكل من انحرف بقوله أو بعمله فقد برىء منه التصوف ، بل هو أصلا ليس من أهله .

ومن شاء أن يعرف الصوفي الصادق من غيره فليحاكمه إلى هذا المبدأ الذي هتف به سادته الكمل وأئمته القادة ، وحينئذ يتميز الخبيث من الطيب ، ويبين الزائف من الصادق .

هذا هو الميزان الذي عناه الشعراني بقوله « إن طريق القوم محررة

على الكتاب والسنة كتحرير الذهب ، أو كما يقول محي الدين « من رمى من يده ميزان الشرع لحظة واحدة هلك » .

ولقد كان شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام إذا سمع حديث أبي الحسن الشاذلي صاح « هلموا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله » .

وذهب أبو العباس بن سريج إمام الفقهاء إلى حلقة الجنيد ليناقشه ويجادله فاستمع إليه صامتاً ثم خرج إلى أصحابه قائلا « لا أدرى ما يقول ، ولكن لكلامه صولة ليست بصولة مبطل » .

أجل إن للتصوف صولة هي صولة الحق ، وإن على الكلم الصوفي لطلاوة ، هي طلاوة الألحان القريبة العهد من الله ، لأنها من إلهامة ومن ينابيع رضاه .

التصوف المفترى عليه

فإذا انتهينا من توضيح العلم الباطنى الصوفى ، وانه فهم يعطى لذوى البصائر فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأنه مقيد بالكتاب والسنة لا ينحرف ولا يميل عنهما .

وأن رسالة المتصوفة ، أنهم فوق تعبدهم يجتهدون فى أمراض القلب وأدويتها وآداب العبودية وواجباتها ، وخفايا النفس وإلهاماتها ، ورقائق المحبة وأسرارها ، وأن اجتهادهم فى هذه المثاليات كاجتهاد الفقهاء فى الفروع والسنن والواجبات التى لم يرد فيها نص صريح قاطع ، وكما حفظ أئمة الفقه حدود الشريعة الإسلامية بإقامة أحكامها ووضع دستورها كذلك حفظ المتصوفة للشريعة آدابها وروحانيتها ، وطهارتها الخلقية . وكمالاتها النفسية .

إذ انتهينا من هذه الخطوة التمهيدية فى سبيل تجلية التصوف وتنقيته مما دس عليه وأدخل على محرابه ، كان لابد لنا قبل الحديث عن كبرى المسائل التى الصقت به ونسبت إليه رغم طهارته ، وبراءته منها ، أن نتحدث قليلا عن الافتراء والدس ، بل عن المؤمرات التى دبرت لتشويه التاريخ الإسلامى كافة ، والعقائد التعبدية منه خاصة ! وتاريخ الإسلام كعقيدة وفكرة ، وتاريخ الإسلام كنظام عالمى ، كل هذا لم يكتب إلى يومنا كتابة عادلة منصفة . كتابة تجلوه بخصائصه وفضائله الكبرى .

لقد شوه المؤرخون ، بل شوه المتآمرون التاريخ الإسلامى عن عمد ، بما دسوا عليه وبما نسبوا إلى كبار شخصياته من عقائد وكلمات وأفعال ، كبار شخصياته سواء منهم أئمة الفكر أو رجال الفقه أو قادة الحرب ، أو رجال التصوف ، بل إن الخلفاء الراشدين أنفسهم لم يسلم تاريخهم من

التزييف والدس ، بل لقد دس فى تفسير القرآن ،ودس فى أحاديث الرسول مايبرأ منه القرآن ومايبرأ منه الرسول . ولولا أن الله جلت قدرته وتعالت حكمته حفظ كتابه الكريم ، لما تورع المفترون عن الدس والتزييف .

إن العالم الإسلامى اليوم وهو على أبواب وثبة من وثباته التاريخية يجب أن يتنبه لهذا ، يجب أن يتوافر العلماء والكتاب والباحثون على التاريخ الإسلامى ليعرضوه عرضا جديداً كريماً وليكتبوه من جديد على ضوء العلم والمعرفة والروح الإسلامى النقى الملهم .

يقول الامام ابن الجوزى فى المنتظم

«ولما جاء النبي صلوات الله وسلامه عليه . وقهر الأملاك وقمع الألحاد، اجتمع جماعة من الثنوية والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فاعملوا رأيهم وقالوا . ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا وخرقوا على أممهم . وأعظم الكل بلية علينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فانه نبغ بين العرب العظام وخدعهم بناموسه فنصروه وبذلوا أموالهم وأنفسهم وأخذوا ممالكنا . وقد طالت مدتهم ، والآن فقد تشاغل أتباعه ومنهم مقبل على كسب المال ، ومنهم على تشييد البنيان ، ومنهم على الملاهى . وقد ضعفت أبصارهم، ونحن نطمع فى أبطال دينهم إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم فليس إلا الدس فى آرائهم والانتماء إلى فرقهم لنستعين بهم على ابطال دينهم » .

ذلك مايقوله الامام ابن الجوزى كاشفا به عن لون من ألوان التزييف المتعمد فى التاريخ الاسلامى ، وكاشفا به عن لون عجيب من ألوان الهدم والتضليل فى صفوف المسلمين .

فان هؤلاء المتآمرين من الملاحدة وأصحاب المذاهب الفلسفية المنقرضة قد جعلوا مؤامرتهم الكبرى ذات شعبتين ، الأولى مهمتها الدس والافتراء

بتزييف الآراء وصوغ العقائد الباطلة ونسبتها إلى رجال الفكر والعقائد للبلبلة والأفساد.

والشعبة الثانية تندس بين صفوف الفرق والمذاهب الاسلامية لتوقع بينها وتضخم من خلافاتها ولتزيف عليها مبادئها وعقائدها.

ولون آخر أعجب من هذا. تكفل به رجال مسلمون؟ أغرموا بأن يلبسوا آرائهم القوة والمكانة فنسبوها إلى الأئمة والقادة. يقول ابن الفراء فى طبقاته نقلا عن أبى بكر المرزوى ومسدد، وحرب: أنهم قد رووا الكثير من المسائل ونسبوها إلى أحمد بن حنبل: وبعد أن يفيض فى ذكر هذه المسائل يقول:

« رجلان صالحان بليا بأصحاب سوء جعفر الصادق وأحمد بن حنبل. أما جعفر فقد نسبت إليه أقوال كثيرة دونت فى فقه الشيعة الامامية على أنها له وهو برىء منها، وأما أحمد فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء فى العقائد لم يقل بها، وإن هذا بلا شك يثير الريب فى نسبة الفقه الحنبلى إلى أحمد ».

وابن الفراء عالم وفقيه ومؤرخ حجة، ومع هذا فهو يتشكك إلى درجة الريب فى نسبة الفقه الحنبلى إلى أحمد بن حنبل؟

وأنه لشىء عجيب ومذهل حقا أن يزيف على الامة الإسلامية مذهباً من مذاهبها الكبرى وأن يقوم بهذا التزييف أصدقاء الامام نفسه وأتباعه.

وجاء فى رسالة الاسلام [1]، أن خصوم الاسلام من الامم المختلفة لما انهزموا حربيا وتحطمت دولهم، اتجهت بقايا الخصومات السياسية الاسلامية فظهروا فى صور شتى وألوان مختلفة مرة فى السياسية باثارة الاحقاد وبث الفتن والمكائد وإذكاء نيران العصبية، ومرة بافساد العلم والفكر عن طريق الوضع والافتراء والتأويل الفاسد وإثارة الشبة والخوض فيما نهى الله ورسوله عنه.

---

(١) السنة الأولى: الجزء الثالث ص ٢٣٥.

كما غذيت هذه الخلافات وهذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة والأحاديث الموضوعة والأخبار المفتراة، وامتلأت كتب التفسير والحديث والمغازى والمناقب بما لا يحصى من الأكاذيب. فأصبح بجوار كل آية من كتاب الله رواية من الروايات تلوى بها عن مقاصدها. وبجوار كل حديث نبوى عشرات الأحاديث الكاذبة تزاحمه وتواثبه، وفى تاريخ كل عظيم أو مفكر أو عابد شائبات تنال منه».

ولو ذهبنا نتقصى ألوان التزيف فى التاريخ الإسلامى لما وسعتنا هذه العجالة التى خصصناها للتصوف والمتصوفة.

التصوف والمتصوفة اللذان كان نصيبهما من الدس والافتراء أعظم وأخطر من سواهما. لأن المزيفين أدركوا أن التصوف هو روح الإسلام، وأن المتصوفة هم قوته الروحية الضخمة، وشعلته الوضاءة المشرقة فأرادوا أن يطفئوا هذا النور، وأن يلغوا فى هذا البيان المبين.

يقول السهروردى فى عوارف المعارف.

« ثم أن إيثارى لهدى هؤلاء القوم ومحبتى لهم، علما بشرف حالهم وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة حدا بى أن أؤلف أبواباً فى الحقائق والآداب معربة عن وجه الصواب فيما اعتقدوه. شعر بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتمدوه. حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم وتستر بزيهم المتسترون، وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول علمهم سوء الظن، وكاد لا يسلم من وقيعة فيهم وطعن».

ويقول محي الدين فى الفتوحات «مما يفتح باب قلة الاعتقاد فى أولياء الله وقوع زلة ممن تزيا بزيهم وانتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع ذلك

(١) نقل عن الامام احمد أنه قال: ثلاثة كتب ليس لها أصل، المغازى والملاحم والتفسير.

من أكبر القواطع عن الله عز وجل ، قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

أجل أكبر القواطع عن الله عز وجل أن يلتبس أمر الزائف من الصحيح فى التصوف على الناس ، فيرى المتعجل التصوف قاطبة بالأفك والبهتان .

لقد دس على التصوف المزيفون من رجال التاريخ ، ودس على التصوف أهل الحاد وخصوم الاسلام ، وشوه التصوف رجال مغرضون ، تزيوا بزيه وانتسبوا إليه فشوهوا وجهه بأفعالهم . وشوهوا سيرته بأقوالهم . وهو منهم براء وهو لهم خصم واضح الحجة .

يقول الشعرانى

« والانكار على هذه الطائفة لم يزل فى كل عصر . بسبب الدس والافتراء ولعلو ذوق مقامهم على غالب العقول . ولكنهم لكما لهم لا يتغيرون كما لا يتغير الجبل من نفخة ناموسة »

ويقول الشيخ أبو الحسن الشاذلى « لقد ابتلى الله هذه الطائفة الشريفة بالخلق . خصوصاً أهل الجدل والافتراء »

ولقد خصص الشعرانى بحثا طويلا جليلا فى مقدمة اليواقيت والجواهر تناول فيه الافتراء على المتصوفة كما تناول فيه الخصومات التى قامت حولهم وأحاطت بهم .

يقول الشعرانى فى هذه الدراسة

« إنه ما من نبى أو ولى إلا وابتلى بالخصومات كما ابتلى بالحسدة والدساسين ثم يضرب المثل بالأنبياء والرسل صلوات الله عليهم . الذين ابتلوا بالخصومات والافتراءات ونسبت إليهم صفات هم منها الطهرة الأبرياء .

ثم كبار الصحابة رضوان الله عليهم « كسعد بن أبى وقاص » الذى اتهمه أهل الكوفة بأنه لا يحسن الوضوء ولا الصلاة . وعبد الله بن الزبير اتهم بالرياء فى صومه وعباداته .

ثم التابعون والأئمة . حيث ضرب أحمد بن حنبل حتى تمزق جسده وتلف. ونسبوا إليه الكفر تارة . والجهل تارة أخرى . وأبو حنيفة الذى جعله خصومه من المرجئة حينا ومن المبتدعين أحيانا . والذى اضطهده الخلفاء وعذبوه وجلدوه بالسياط ورموه بالكبائر ، واستخفى مالك خمسا وعشرين سنة لايخرج لجمعة أو جماعة خوفامن خصومه الذين ملؤا الدنيا حوله صياحا واتهاما . وعانى الشافعى ما عانى فى مصر والعراق مما أفسح له التاريخ مكانا وبيانا .

ثم يقول ، وما من صوفى إلا وأحاطت به عصبة السوء والأفك تجريحا وتشهيرا ودسا وافتراء . فقد نفوا البسطامى سبع مرات من بلده بتهمة الكفر والزندقة . وأحلوا دم ذى النون المصرى . وشهدوا على الجنيد بالكفر والالحاد ، ودسوا على الغزالى فى الأحياء عدة مسائل تنبه لها القاضى عياض وأرشد إليها وأمر بإحراقها ، ودسوا على محي الدين فى الفتوحات ليوقعوا فيها من أراد الله إضلاله من جهلة المتصوفة ، فإن الشيخ محي الدين من أكابر الأولياء والراسخين، فربما قال لهم إبليس إن ما فى كتبه ليس مدسوسا عليه ، وإنما ذلك كان اعتقاده ، ويكفيكم فى الدين ، اتباع هذا الرجل الجليل . فعظمه فى أعينهم حتى لا يتوقفوا فى اعتقاد ما يجدونه فى كتبه من المدسوس » .

ثم يقول .

« ولقد تنبه لما فى كتب محي ، من الدس والافتراء ، الفير وزبادى وصاحب نفح الطيب ، ثم يقول أيضا . إنه عند ما أخذ فى تأليف مختصر للفتوحات رأى فيها أشياء كثيرة لا تتفق مع ما عليه أهل السنة والجماعة فحذفها وتوقف فيها . ولم يزل كذلك حتى قدم عليه الشيخ شمس الدين محمد ، فذاكره فى ذلك فاخرج له نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط

الشيخ محي الدين نفسه ، بقونية ، فلم ير فيها شيئاً مما توقف عليه وحذفه .

ثم يقول . فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع ذلك أيضا فى كتاب الفصوص وغيره من كتب محي الدين » .

ولا عجب فيما يرويه لنا الشعرانى ، فكتب التفسير تموج بالاسرائيليات الكاذبة التى تنسب إلى ابن عباس مثلا ، وهو منها البرىء المطهر .

وكتب الأحاديث تزخر بأمواج من الأحاديث الموضوعة والتى نسبها المزيفون إلى أفضل خلق الله وأصدقهم ! ؟

بل أن الحديث عن التزيف فى الأدب العربى لا يزال قريب العهد بآذاننا حتى أن إماما من أئمة الأدب المعاصرين . قد تشكك فى الشعر الجاهلى كافة.

يقول الشعرانى . سمعت سيدى عليا الخواص يقول ، ولو أن كمال الدعاة إلى الله تعالى كان موقوفا على أطباق الخلق على تصديقهم . لكان رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أولى بذلك ، وقد خاصمهم الناس . فريقا يقتلون وفريقا يأسرون » .

والشعرانى نفسه . الذى خصص جهده الأكبر لتنقية التصوف من الدس والدخيل . قد دس عليه حيا وميتا ؟ وافترى عليه حيا وميتا ! ؟

يقول الشعرانى . « ومما من الله به على انشراح صدرى لاتباع السنة المحمدية فعلا واعتقادا ، وانقباض خاطرى ضد ذلك من حين كنت صغيراً ، حتى إنى بحمد الله أتوقف فى بعض الأوقات عن العمل ببعض ما استحسنه بعض العلماء حتى يظهر وجه موافقته للكتاب والسنة » .

ثم يقول « فكذب والله وافترى من أشاع عنى من الحسدة ، انى أشطح فى أفعالى وأقوالى وعقائدى عن ظاهر الكتاب والسنة مع أن أحداً من هؤلاء الحسدة لم يجتمع بى قط ، ولا يثبت عنده ذلك ببينة عادلة إنما .

بعض الحسدة ، زين له الشيطان ذلك لما عجز أن يجد مطعنا فى أفعالى الظاهرة فافترى على ببعض الكلمات ودار بها ».

ولم يكتفوا مع الشعرانى بهذا، بل زيفو مقدمة لكتابه كشف الغمة . ونشروها مع الكتاب فى حياته واستعاروا نسخة من كتابه البحر المورود ودسوا فيها كفريات عابثة وأرسلوها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى وأثاروا فتنة فى الأزهر عليه . ولبث التزييف قائماً ثلاث سنوات حتى تمكن الشعرانى من إثبات كذب خصومه وتضليلهم .

أما ما زيف على الشعرانى بعد وفاته فشىء ضخم عجيب سيأتى بيانه فى موضعه من هذا الكتاب .

هذا التزييف؟ وذاك الدس ، كانا الدعامة الكبرى للهجوم على التصوف والمتصوفة وهذا الدس وذلك التزييف هما سر ما نسب إلى التصوف ظلما وزوراً من عقائد تمثلت فيها أساطير الملل والنحل كافة .

وفى طليعة هذا الموكب الزائف الشائن . نرى فكرة وحدة الوجود الوثنية وما يتبعها من اتحاد وحلول وفنا الجزء فى الكل كما يدعون .

كما نشاهد فى هذا الموكب الشطحات الفلسفية المضللة التى خلعوا عليها أثوابا براقة خادعة .كدعوى الحقيقة المحمدية التى جعلوها قبة الوجود وأصله وسره[1] وما أطلقوا عليه كلمة الجذب وجعلوها مرادفة للتحلل من الشريعة قولا وعملا . وما ابتدعوا عن ذل وعجز وأسموه ورعا وزهداً . وما تخيلوا من مذاهب باطنية منحرفة عن كتاب الله وسنة رسوله . وتنادوا بأنها الحق وأنها السر ؟ وأنها الشىء المضمر المراد المأول .

وكل هذا وذاك يبرأ منه التصوف ، ويبرأ منه المتصوفة بل هم أشد

---

(١) شرحنا الحقيقة المحمدية شرحا كاملا فى كتابنا — حقائق التصوف الكبرى — فليراجعه من يريد التوسع فى تلك الدراسات .

الناس إنكاراً له وحربا عليه . لأنهم أقوى الناس إيمانا وأبصر الناس بهدى كتابهم وسنة رسولهم .

إنهم العابدون المحبون الذين جعلوا الكون محرابا لله . فعاشوا طوال لحظاتهم فى صلاة . عاشوا طوال حياتهم بأدب المصلى الذى لا تغفل جارحة من جوارحه عن المناجاة ، بأدب المصلى المتطهر المعلق القلب بربه المقبل بوجهه على خالقـــه ، فكل صغيرة مهما دقت فى ميزانهم كبيرة ، بل كل رخصة لديهم ضعفا ، لأنهم أولو عزم ، وأصحاب العزمات هم المتطوعون أبداً للكمال . وكما هم فى إيمانهم . كما هو فى آدابهم . كما هو فى إعلاء كلمة دينهم ورسالة نبيهم .

التصوف بريء من وحدة الوجود

وحدة الوجود، وفكرة الاتحاد والحلول. فكرة إلحادية قديمة، عريقة فى العبادات الهندية والديانات البوذية. وخلاصتها التى تقربها إلى العقول. أن أصحابها انقسموا إلى فريقين. فريق يرى الله سبحانه وتعالى عما يصفون، روحا ويرى العالم جسما لذلك الروح، وإن الإنسان إذا سما وتطهر، ارتفع فالتصق بالروح — التى هى الله — ففنى فيها. فذاق السعادة الكبرى وظفر بالخلود الدائم.

والفريق الثانى يرى أن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله. فكل شيء فى زعمهم هو الله. والله هو كل شيء، يتجلى تجليا حقيقيا فى كل شى فى الكون بذاته، فلا موجود إلا الوجود الواحد، ومع ذلك يتعدد بتعدد الصور تعدداً حقيقيا واقعيا فى نفس الأمر ولكن ذلك التعدد لا يوجب تعدداً فى ذات الوجود، كما أن تعدد أفراد الانسان لايوجب تعدداً فى حقيقة الإنسان. أو تعددصور الإنسان الواحد فى المرايا المجاورة لا تحتم تعدده.

تلك هى فكرتهم فى وحدة الوجود. وهى سفسطة لا يقبلها منطق ولا عقل ولا شرع. سفسطة تذهب بالشرائع كافة والأديان جميعها، وتنال من الجلال والكمال الواجب لله سبحانه وتعالى، وتبطل الجزاء والعقاب والجنة والنار. والحياة الأخروية. كما تبطل الحدود بين الخالق والمخلوق فتجعل الخلق والخالق شيئا واحداً.

وهذا الإفك الأكبر، وهذا اللغو الألحادى الفاجر هو الذى قذف به خصوم التصوف المتصوفة. وهم من هم، إيمانا وكمالا وأدبا وخلقا، ووحدانية وتقديسا لفاطر السموات والأرض.

قذف خصوم التصوف المتصوفة بهذا الإفك . متخذين من حبهم لربهم تكئة ومقعداً لهذا الاتهام . وركض بهذا الافك فى محراب التصوف رجال الاستشراق الذين لبسوا ثوب العلم بالإسلام فى ثوب الدفاع عنه

ثم تفلسف المستشرقون ، وتفلسف المتعالمون من الجهلاء بالتصوف والإسلام . فقالوا إن للتصوف علاقات وثيقة ببوذا ووثنية الهند ، وإن وحدة الوجود وفكرة الحلول ، عند المتصوفة أقباس من الصوفية البوذية ولمحات من فلسفة المدرسة الاشراقية .

ونسوا أو تناسوا ، أن التصوف الإسلامى قام على كتاب الله وسنة رسوله وهديه . وأن الصوفى المسلم يقرأ فى كتاب ربه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ، فيقرأ خلاصة العلم الذى يتعلمه طلاب اللاهوت فى سائر الملل والنحل ويطوى تحت هذا البلاغ المبين كل فلسفة تتشدق ببحث الذات والصفات والخلق والخالق .

يقول الشعرانى فى اليواقيت ، ولعمرى إن عباد الأوثان لم يتجرؤا أن يجعلوا آلهتهم عين الله . بل قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله تعالى أن يدعوا الاتحاد بالحق سبحانه ، هذا محال فى حقهم رضى الله عنهم .

ويقول الإمام محي الدين بن عربى فى عقيدته الوسطى ، إعلم أن الله سبحانه واحد باجماع وقيام الواحد يتعالى أن يحل فيه شىء ، أو يحل هو فى شىء أو يتحد بشىء .

ويقول فى باب الأسرار من الفتوحات ، لا يجوز للعارف أن يقول أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب . وحاشا للعارف من هذا حاشاه .

ويقول أيضاً فى لوائح الأنوار « من كمال العرفان شهود عبد ورب ، وكل عارف نفى شهود العبد فى وقت ما ، فليس بعارف ، وإنما هو فى ذلك الوقت صاحب حال ، وصاحب الحال سكران لا تحقيق عنده . »

ويقول فى الفتوحات « لا حلول ولا اتحاد ، فإن القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد إلا أهل الالحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول ومن دينه معلول »

ويقول فى باب الأسرار « أنت أنت . وهو هو . فإياك أن تقول كما قال العاشق ، أنا من أهوى ومن أهوى أنا . فهل قدر هذا أن يرد العين واحدة ، لا والله ، والجهل لا يتعقل حقاً » .

وقال أيضا « إياك أن تقول أنا هو . وتغالط . فإنك لو كنت هو لأحطت به كما أحاط تعالى بنفسه »

ثم يقول « لو صح أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى،لصح انقلاب الحقائق وخرج الاله عن كونه إلها ، وصار الحق خلقا ؟ والخلق حقا ؟ وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجبا ، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً »

ويقول الجنيد شيخ الطريقة فى الرد على الفجرة الفسقة أصحاب وحدة الوجود « إن هذا كلام من يقول بالإباحة . والسرقة والزنا عندنا أهون حالا ممن يقول بهذه المقالة »

وسئل العارف الربانى الإمام سهل بن عبد الله التسترى عن ذات الله عز وجل فقال « ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا حلول ، وتراه العيون فى العقبى ظاهراً فى ملكه وقدرته ، وقد حجب الخلق

عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

ويقول أيضاً مخاطباً الغرور البشرى والوجود الإنسانى . يا مسكين كان الله ولم تكن ، ويكون الله ولا تكون ، فلما كونك اليوم صرت تقول أنا وأنا ، كن الآن كما كنت قبل تكوينك ، واعرف فاقة نفسك وحقارتها ، ونزلها منزلتها من الذلة والاحتقار . .

ويقول الشعرانى فى المنن :

وبعضهم رأى أن كل شىء فى الوجود هو الله ، وأن عين هذا الوجود الحادث هو عين الله . من الجماد والنبات والعقارب والحيات . والجان والانسان ، والملك والشيطان ، ويجعلون الخالق هو عين المخلوق من خسيس ونفيس ومرجوم وملعون حتى إبليس ، وهذا كلام لا يرضاه أهل الجنون ولا من كان فى حبه مجنون . والذى أقوله ، إن إبليس لو ظهر ونسب إليه هذا المعتقد لتبرأ منه واستحى من الله تعالى ، وإن كان هو الذى يلقى إلى نفوسهم ذلك

وقد حكيت لسيدى على الخواص بعض صفات هؤلاء الذين يقولون هذا القول ، فقال : هؤلاء زنادقة ، وهم أنجس الطوائف ، لأنهم لا يرون حساباً ولا عقابا ولا جنة ولا نارا ولا حلالا ولا حراما ولا آخرة ولا لهم دين يرجعون إليه ولا معتقد يجتمعون عليه وهم أخس من أن يذكروا لأنهم خالفوا المعقولات والمنقولات والمعانى وسائر الأديان التى جاءت بها الرسل عن الله تعالى ولا يعلم أحداً من طوائف الكفار اعتقد اعتقاد هؤلاء ، فإن طائفة من النصارى قالت المسيح ، بن الله وكفرهم القوم الآخرون ، وطائفة من اليهود قالت العزير بن الله وكفرهم القوم الآخرون . فلم يجعلوا الوجود عين الله تعالى . .

مقام الفناء

وأخطاء الحلوليين ...

تلك هي كلمة التصوف في وحدة الوجود. ولعمرى إنها لأقوى الكلمات الإسلامية دفعاً لتلك النظرية الوثنية وهدما لها، وهي أعلى الكلمات الإسلامية استنكاراً لهول ما تنطوى عليه من كفريات وإباحيات ملعونة مرجومة، حتى إن الشعراني ليقول، إن إبليس نفسه وهو ملهم الخبائث لا يجرؤ على تلك القولة الملعونة، التي ارتكب أربابها أمراً إدا، تكاد السموات يتفطرن منه وتخر الجبال هدا[1].

ولسائل أن يسأل فكيف إذن نسبت إلى التصوف أو إلى بعض المتصوفة ومن أي باب أدخلها المغرضون ووثب بها الواثبون؟. ومن أي باب أيضاً تسللت طوائف الإفك التي رمت التصوف أو بعض المتصوفة بالحلول والاتحاد؟.

لقد تسلل المزيفون والمغرضون إلى المحراب الصوفي بذلك الإفك الأكبر ليطفئوا نوره ويحطموا نبراسه متخذين ومن عجب آيته الكبرى وهي المحبة، أو مقام الفناء تكئة لأكاذيبهم الآثمة.

فالتصوف قوامه الذكر والعبادة، والتأمل والطاعة، وثمرته التجلي والمحبة، وما يلهم التجلي وما تعلم المحبة، وبين بدايته ونهايته. أحوال ومقامات ومعارج ونفحات. سرها الترقي الدائم في صفاء القلب، وإلهامات الروح واشراقات الحس.

وأول مقامات المتصوف المقبل على ربه، بل أول مقامات المؤمن العابد

---

(١) من أراد التوسع في دراسة موقف التصوف الاسلامي من نظرية وحدة الوجود فليراجع ذلك في كتابنا عن «محي الدين بن عربي»

هو أن يعبد الله كأنه يراه ، فإذا عبده تلك العبادة وتحقق بجلالها ، فهل تظن أنه يرى سواه جل جلاله .

يقول الشعرانى

« ومن يقول لا موجود إلا الله ، فذلك من مقام المريد المبتدىء لأنه من شدة تعشقه فى الطريق، وترحل قلبه عن محبة غير الله تعالى يصير قلبه محجوباً عن شهود الأكوان كما يقع لصاحب المصيبة إذا مات له ولد، أو تلف له مال ، فإنه من شدة المصيبة يصير يدخل الدار ويخرج ولا يرى صاحبه الجالس على بابه ، فإذا سئل هل رأيت فلانا ، قال لا . فإذا قيل له : لقد كان أمامك ، قال والله من شدة الهم ما رأيته » .

ثم يقول « وليس مراد المبتدىء فى الطريق أن ينفى وجود العالم كله كما يظن من لا علم له بأحوال أهل الطريق ، بل مراده أن الله تعالى قد أخذ حبه بمجامع قلبه حتى حجبه عن شهود خلقه .

وإذا كان النساء اللاتى خرجن على يوسف عليه السلام ذهلن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن ولم يشعرن بألم القطع فكيف بذهول من تعلق قلبه بحب ربه وشاهد من آياته الكبرى .

وقد روى القشيرى عن الشبلى أنه كان يزور فى بداية أمره شيخه الحصرى كل يوم جمعة فقال له شيخه يوما : يا أبا بكر إن خطر فى بالك غير الله تعالى من الجمعة إلى الجمعة فلا تعد تأتينا فإنه لا يجىء منك شىء . »

ذلك هو أدب الطريق الصوفى الذى يلقنه الشيوخ للمبتدئين ، أن ينفوا الوجود عن قلوبهم بل عن خواطرهم ، لتمتلىء كل جوارحهم بذكر الله وحب الله وجلال الله .

تلك معنويات عليا يتذوقها المؤمنون العابدون ، ولا شأن لها بما

أراد المضللون الذين توهموا فى هذا القول المنير وحدة الوجود ، أو الاتحاد والحلول .

لم ينف المتصوفة بهذا القول الإيمانى المظيم وجود الكون ولم يتصوروا بل لم يجل بخواطرهم ، أن معنى ذلك وحدة أو حلول ، أنهم قوم حجبتهم المحبة عما سوى الله فلم يروا فى الكون سواه ، مسألة حسية وجدانية ، ليس معناها أن الكون قد زال أو فنى ، وإنما معناها أن القلب المحب قد استغرقه جلال محبه الأعظم فلم ير إلا إياه .

يقول الشعرانى « أجمع أهل الحق على أن حقائق الأشياء ثابتة فكيف يصح نفيها ، إنما العبد يحجب عنها بما دهمه من الأمور العظيمة ، قيل للشبلى ما التوبة ، قال : ألا تشهد فى الدارين سواه ، أى لا تشهد فى الدارين خالقاً أو ربا أو رازقا أو مؤثراً ومدبراً سواه ، وإن شهدت ليس لأحد وساطة أو أثرا فى عمل ما ، فلا تلتفت إلى ذلك .

وليس معنى هذا أن لا نشهد غير الله أصلا من جميع الاكوان فان ذلك لا تصح للمقربين وذلك معنى قوله صلوات الله وسلامه عليه (أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد)

« ألا كل شىء ما خلا الله باطل »

أى كالباطل ، من حيث أن كل شىء قائم بالله تعالى لا بنفسه ، فإن شاء الله أبقاه وإن شاء أذهبه فى لمح البصر أو هو أقرب » .

ذلك فناء المبتدئين أو مقام المريدين أو حجاب السالكين فى أول الطريق ، يحجبون بحب الله عما سواه ، أما الكمل السادة فقد ارتفعوا فوق تلك المعانى ولم يقفوا مع العقبات ، بل رؤا الله جل جلاله ورؤا الكون أيضا ، وذلك كما يقول محي الدين ، أكمل ألوان العبادات .

يقول السراج الطوسى فى اللمع « غلطت جماعة من البغداديين فى قولهم

أنهم عند فنائهم عن أوصافهم دخلوا فى أوصاف الحق . وقد أضافوا أنفسهم بجهلهم إلى معنى يؤدى بهم إلى الحلول أو إلى مقالة النصارى فى المسيح عليه السلام .

فإن وجد فى كلام الكمل من المتصوفة معنى الفناء ، فى الله جل شأنه فالمعنى الصحيح المقصود من ذلك . أن الارادة للعبد وهى من عند الله عطية ومعنى خروج العبد من أوصافه والدخول فى أوصاف الحق ، خروجه من ارادته ودخوله فى ارادة الحق ، وذلك منزل من منازل أهل التوحيد .

وأما الذين غلطوا فى المعنى إنما غلطوا بدقيقة خفيت عليهم حتى ظنوا أن أوصاف الحق هى الحق ، وهذا كله كفر ، لأن الله تعالى لا يحل فى القلوب. ولكن يحل فى القلوب الإيمان به والتوحيد له والتعظيم لذكره .

ثم يقول فى اللمع أيضا متحدثا عن مقام الفناء « هو فناء رؤيا العبد فى أفعاله لأفعاله » .

ويقول الهجورى واصفاً الفناء « بأنه فناء إرادة العبد فى إرادة الله ، لا فناء وجود العبد فى وجود الله » .

ذلك هو الفيصل بين المتصوفة وخصومهم ، فالفناء الصوفى هو فناء معنوى . لا فناء مادى كما توهم المتوهمون .

يقول القشيرى فى باب الفناء « ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عينا ولا رسما ولا طللا ، يقال أنه فنى عن الخلق وبقى بالحق » .

ثم يقول « وفناؤه عن نفسه وعن الخلق بزوال احساسه بنفسه وبهم ، فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال ، فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من ذلك موجوداً . وإذا قيل فنى عن نفسه وعن الخلق فنفسه موجودة

والخلق موجودون ، ولكنه لاعلم له بهم ولا به وقد ترى الرجل يدخل على ذى سلطان فيذهل عن نفسه وعن أهل مجلسه هيبة حتى إذا سئل بعد خروجه من عنده عن أهل مجلسه لم يمكنه الأخبار بشىء » .

وهو فناء اجلال وحب إذن ، لافناء عين ، فناء القلب المستغرق فى نوار أ الجلال الإلهى عما سواه .

ويروى الشعرانى فى الطبقات عن الشيخ عبد الرحمن الطفسونجى وهو يشرح حال المراقبة

« والمراقبة ، لعبد راقب الحق بالحق ، وتابع المصطفى صلى الله عليه وسلم فى أفعاله وأخلاقه وآدابه والله عز وجل قد خص أحبابه وخاصته بأن لا يكلهم فى شىء من أحوالهم إلى نفوسهم ولا إلى غيره ، فهم يراقبون الله تعالى ويسألونه أن يرعاهم .

والمراقبة تقتضى حال القرب والله عز وجل قرب القلوب إليه بما هو قريب منها فهو يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر بماذا يقرب من قلبك .

وحال القرب يقتضى حال المحبة ، وهى تتولد من نظر القلب إلى الله عز وجل وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته . فطوبى لمن شرب كأساً من محبته . وذاق نعيما من مناجاته . فامتلأ قلبه حباً فطار بالله طرباً . وهام به اشتياقا ، ليس له سكن ولا مألوف سواه . فهو محب خرج من رؤية المحبة إلى المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هو بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محباً بلا علة . والمحبة تقتضى الذكر ، فلا يزال المحب يذكر ربه ويدخل الخلل فى ذكره لنفسه حتى يصير الغالب عليه ذكر ربه . وصار كالغافل عن نفسه ثم يغفل عن ذهوله عن نفسه وينسى باستيلاء ذكر ربه عليه جميع الأحاسيس ، فيقال فنى عن نفسه ويقال فنى بربه . وهو

هنا يكون مختطفاً عن نفسه . ممحواً عن جملته . فانياً عن كله »

سئل أبا يزيد عن عمره فقال أربع سنوات ويجيب البسطامى شارحاً تلك الكلمة بقوله « حجبت عن الله سبعين سنة ولم أره إلا فى السنوات الأربع الأخيرة . وعليه فالسبعون الأولى ليست من عمرى »

وهذا الشعور الكامل بالتجلى الإلهى والاحساس الصادق بالحب الربانى يزداد حتى يبلغ الحد الأعلى فيذهب عن المحب وعيه : بل تكاد تذهب عنه بشريته . ليغدو جوهراً أو كالجوهر وهى الحالة التى يعبرون عنها بالذوق والشرب والغيبة ويجمع ذلك كله ، كلمة الوجد .

ويعد المتصوفة الفناء فى حالة الوجد نهاية سفرهم إلى ربهم فيصبح الصوفى هنا فى قمة فوق العالم لأنه استغنى عنه .

وهذه هى حال البقاء ، والإنسان فيها إنسان كامل ، وهذا موقف لا مجال للقول فيه أو كما يقول الغزالى « يصل الانسان إلى حالة يضيق نطاق النطق عن وصفها »

مقام الفناء وابن تيمية

ومن عجب أن مقام الفناء الذى اتهم فيه المتصوفة بوحدة الوجود تارة والاتحاد والحلول تارة أخرى ، مقام من صميم التوحيد الإسلامى ، بل هو المقام الذى ترتكز عليه العبادات الربانية كافة حتى إن ابن تيمية وهو خصم التصوف الأكبر ليخصص لشرحه فى كتبه مكاناً لم يخصصه لغيره من مواقف الفكر الإيمانى .

يقول الإمام ابن تيمية فى كتابه العبودية[1] متحدثا عن مقام الفناء الفناء فى المحبة الإلهية .

(الفناء عن إرادة ما سوى الله . بحيث لا يحب إلا الله . ولا يعبد إلا إياه . ولا يتوكل إلا عليه . ولا يطلب من غيره . وهو المعنى الذى يجب أن يقصد بقول الشيخ أبى يزيد حيث قال . أريد أن لا أريد : أى المراد المحبوب المرضى ، وهو المراد بالارادة الدينية . وكمال العبد . أن لا يريد ولا يحب ولا يرضى إلا ما أراده الله . ورضيه وأحبه وهذا معنى قولهم فى قوله تعالى — إلا من أتى الله بقلب سليم — قالوا هو السليم عما سوى الله . أو عما سوى عبادة الله أو عما سوى إرادة الله . أو عما سوى سوى محبة الله . فالمعنى واحد . وهذا المعنى إن سمى فناء أو لم يسم . هو أول الاسلام وآخره . وباطن الدين وظاهره) .

ثم يتحدث ابن تيمية عن المقام الثانى فى مقامات الفناء فيقول :

« وأما النوع الثانى . فهو الفناء عن شهود السوى وهو يحصل لكثير من السالكين . فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته

---

(١) ص ٩٦

ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد. وترى غير ما تقصد. لا يخطر بقلوبهم غير الله. بل ولا يشعرون. كما قيل فى قوله تعالى — وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها — قالوا فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى. وهكذا كثيراً ما يعرض لمن دهمه. أمر من الأمور إما حب وإما خوف وإما رجاء. يبقى قلبه منصرفا عن كل شيء إلا عما قد أحبه أو خافه أو طلبه. بحيث يكون عند استغراقه فى ذلك لا يشعر بغيره فإذا قوى على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده. وبمذكوره عن ذكره. وبمعروفه عن معرفته حتى يفنى من لم يكن: وهى المخلوقات المبعدة بمن سواه. ويبقى من لم يزل وهو الرب تعالى والمراد فناؤها فى شهود العبد وذكره. وفناؤه عن أن يدركها أو يشهدها. وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى يضطرب فى تمييزه. فقد يظن أنه هو محبوبه. كما يذكر أن رجلا ألقى نفسه فى اليم فألقى محبه نفسه خلفه. فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفى: قال: غبت بك عنى. فظننت إنك إنى).

أليست تلك المقامات من حالات الفناء. هى المقامات التى يرمى فيها المتصوفة بوحدة الوجود.

يقول ابن تيمية خصم التصوف الأكبر. (فإنهم لفرط انجذاب قلوبهم إلى ذكر الله وعبادته ومحبته ضعفت قلوبهم عن أن تشهد غير ما تعبد. وترى غير ما تقصد).

وهل قال المتصوفة أكبر من هذا القول ومن عجب أن ابن تيمية يهاجم التصرف والمتصوفة لأنهم يقولون: إنهم فى نشوتهم الكبرى لا يرون إلا الله ويذهلون عما سواه، أى نفس ما يقول ابن تيمية.

إنهم ليرون الله فى كل شيء. ومع ذلك يوقنون بأنه سبحانه فوق كل شيء. وهذا أكمل درجات التوحيد.

ويقول ابن تيمية أيضا فى مجموعة رسائله[1] وأما قول الشاعر فى شعره

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوى . كاتحاد أحد المحبين بالآخر ، الذى يحب أحدهما مايحب الآخر ، ويبغض مايبغضه . ويقول مثل مايقول ويفعل مثل ما يفعل . وهذا تشابه وتماثل . لا اتحاد العين بالعين . إذا كان قد استغرق فى محبوبه . حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر .

غبت بك عنى فظننت أنك أنى

فهذه الموافقة . هى الاتحاد السائغ .

ويقول ابن تيمية أيضا فى الرسائل (روى البخارى فى صحيحة عن أبى هريرة عن النبى بقوله تعالى — من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة — فقوله من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة . فجعل معاداة عبده الولى معاداة له فعين عدوه عين عدو عبده . وعين معاداة وليه عين معاداته . ليسا هما شيئين متميزين) .

ويذكر أيضا ابن تيمية حديثا رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى . يقول الله تعالى « عبدى مرضت فلم تعدنى . فيقول يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلو عدته لوجدتنى عنده . عبدى جعت فلم تطعمنى فيقول : رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين . فيقول : أما علمت أن عبدى فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى » .

ولم أجد رداً على خصوم المتصوفة الذين هاجموهم فى مقام الفناء وتسللوا

---

(١) ص ٥٢

منه إلى اتهامهم بوحدة الوجود . وفكرة الاتحاد والحلول ، أبلغ من هذا التفصيل الرائع لمقامات الفناء الذى كتبه ابن تيمية خصم التصوف الأكبر ، والذى رمى المتصوفة بوحدة الوجود . وقذفهم بالاتحاد والحلول متخذا برهانه من كلامهم فى الفناء والمحبة .

ولم أجد شاهدا أكبر دلالة مما استشهد به هو من القرآن الكريم «وأصبح فؤاد أم موسى فارغا » أى فارغا مما سوى موسى .

وقلب المتصوفة لشدة حبهم لربهم ، أصبح فارغا مما سوى الله جل جلاله . وربنا سبحانه أكبر وأعظم من أن يشبه بعبد من عباده أو برسول من رسله

وليقل بعد ذلك المغرضون ما شاؤا . . .

جهاد الشعرانى

السبحات الفلسفية والتصوف

لقد حمل الشعرانى أعباء رسالة علمية إصلاحية ، ما أظن أن صوفيا سواه ، بل لا أعتقد أن عالما من المفكرين الإسلاميين حمل مثلها أو قام بشبيه لها .

تلك الرساله هى التوفيق بين شتيت الآراء والمذاهب والأفكار الإسلامية ، والتقريب بينها بتنقيتها من التطرف ، وإبعاد الدخلاء والزائفين عن ساحاتها ، وباتخاذه دائما موقفا وسطا محدداً كالصراط المستقيم .

عمل الشعرانى على التوفيق بين الفقه والتصوف . أو بين الشريعة والحقيقة كما يقال فى الاصطلاح ، وخصص لذلك الجانب الأكبر من دراساته وكتبه .

كما جاهد للتوفيق بين التصوف ، وبين رجال الكلام والتوحيد ، وأصحاب النظر العقلى من الفلاسفة والمتكلمين ، يقول الشعرانى فى كتابه الميزان « وحاولت المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر حسب طاقتى ولم يسبقنى إلى ذلك أحد » .

وبذلك اتفق الشعرانى مع الغزالى فى ناحية ، واختلف معه فى الناحية الأخرى ، فقد سعى الغزالى جاهدا من قبله للتوفيق بين الفقه والتصوف ولكنه فى الناحية الأخرى حارب الفلسفة بعنف وقسوة لم يهادنها ولم يقبل معها تفاهما ، ولم يرض لها حجة .

وبهذا الموقف الذى اتخذه الشعرانى شعاراً له ؛ اضطر مكرها للمحاربة والصراع فى كافة الميادين الفكرية والساحات العلمية .

فقد حارب الشعرانى وحورب من أدعياء التصوف ، من المجاذيب والبهاليل والدراويش ، وكانوا أصحاب الجاه والسطوة فى عهده .

كما حارب وحورب من الفقهاء المتزمتين الذين جمدوا على آراء وكتب أغرمت بالافتراض، وأولعت بالجدل والحوار وملئت بكل غريب وشاذ، وحارب وحورب من رجال الكلام الذين ملؤا الدنيا صياحا وهتافا بأنهم وحدهم سدنة الإيمان وحجابه ، وأن الإيمان الحقيقى الذى يقبله الله هو ما ابتكرته أقلامهم ، وما اشترطوا له من قيود وسدود وحدود .

كما حارب الشعرانى أيضا المتفلسفين من رجال التصوف ونازلهم منازلة قاسية ، حتى إننا لنراه أحيانا يهاجم محي الدين ، وهو المحب الأكبر والتلميذ الأمين لمحيي الدين. ويهاجم الغزالى مع إجلاله العظيم لحجة الاسلام ، ويهاجم جمهرة من سادة المتصوفين القدامى مع احترامه لهم وتقديره . ولكن الشعرانى يهدف لغاية أكبر من الحب والاجلال ، والتقدير . للسابقين من المتصوفة . كان يهدف إلى حماية العقول العامية وأشباه العامية فى عهده من صولة الآراء الصوفية ، وهى صولة لا يعرفها إلا من ذاق وعرف . وهى صولة أكبر من أن تطيقها العقول الضعيفة ، أو تحتملها القلوب الجامدة .

وعصر الشعرانى كان لا يطيق تلك الصولة القوية للآراء الصوفية العليا ، فعمل الشعرانى للصالح العام ، ولم يلق بالا إلى عواطف الحب والاحترام . فقام بهجومه الكبير القوى على كلمات التصوف المجنحة ، وعباراته الرحيبة الأفق التى تحمل أكثر من معنى وتؤدى إلى أكثر من غاية .

يقول الشعرانى : وبالجملة فلا تحل قراءة كتب التوحيد الخاص وكتب العارفين إلا لعالم كامل أو من سلك طريق القوم ، وأما من لم يكن واحدا من هذين الرجلين فلا ينبغى له مطالعة شىء من ذلك خوفا عليه من إدخال الشبه التى لا يكاد الفطن أن يخرج منها فضلا عن غير الفطن .

ثم يقول :

« ولكن من شأن النفس كثرة الفضول ومحبة الخوض فيما لا يعنيها وقد وضع بعض العلماء من السلف كتابا جمع فيه كثيراً من الكلمات التى ينطق بها العوام مما يؤدى إلى الكفر وحذر فيه من النظر فى جملة من الكتب ، وقد حبب إلى أن أذكر لك طرفا من ذلك لتتجنب النطق به والنظر فيه ، فأقول وبالله التوفيق :

« ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم — يامن يرانا ولا نراه — وقولهم (يا ساكن هذه القبة الخضراء) وقولهم — سبحان من كان العلا مكانه — ونحو ذلك مما لا يجوز التلفظ به لما يورث من الإيهام عند العوام ، وأن الله تعالى مكاناً خاصاً ، وإن قال هذا القائل أردت بقولى « ولا نراه » عدم رؤيتنا له فى الدنيا ، قلنا له قد أطلقت القول ، والإطلاق فى محل التفصيل خطأ . وقد أجمع أهل السنة على منع كل إطلاق لم ترد به الشريعة ، سواء كان فى حق الله تعالى أو فى حق أنبيائه ، أو فى حق دينه ، وكان الشيخ أبو الحسن الأشعرى يقول « ماأطلق الشرع فى حقه تعالى أو فى حق أنبيائه أطلقناه . وما منع منعناه ومالم يرد فيه إذن ولا منع نظرنا فيه . فان أوهم ما يمتنع فى حقه تعالى منعناه وإن لم يوهم شيأ من ذلك رددناه إلى البراءة الأصلية ، ولم نحكم فيه بمنع أو إباحه فقد اتفق الإمامان على منع كل إطلاق يوهم محظوراً فى حق الله تعالى ، وتبعهما العلماء على ذلك قاطبة . وكذلك منع من يقول . . يادليل الحائرين ، يادليل من ليس له دليل — ونحو ذلك وكله لم يرد به شىء .

وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات كحديث ينزل ربنا إلى سماء الدنيا . وقد بلغ بأحد الضالين أن يقول وكان على المنبر فنزل درجاً منه وقال للناس « ينزل ربكم عن كرسيه إلى سماء الدنيا كنزولى عن منبرى هذا » وهذا جهل ليس فوقه جهل .

وما يمنع شرعاً إطلاق بعضهم على الله تعالى ـ الخمار ـ والساق ـ وراهب الدير ـ وصاحب الدير ـ وليلى ، ولبنى وسعدى ، وإسماء ـ ودعد . وهند ، والكنز الأكبر ، ونحو ذلك ، وكذلك لا يجوز إجماعا إراده ذاته تعالى بقول بعضهم .

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

وقول بعضهم :

تمازجت الحقائق بالمعانى فصرنا واحدا روحاً ومعنى

فكل هذا وأمثاله لايجوز عند أهل السنة والجماعة وقد سألت سيدى عليا الخواص عن التغزلات التى فى كلام القوم ، هل مرادهم بها الله تعالى . فقال . لا . إنما مرادهم بها الخلق . ولكن يفهم الفاهم منها فى حق الحق مايبعثه عند سماعها إلى الحضور مع الحق .

قال : لأن أولياء الله تعالى أعرف الخلق بالله تعالى بعد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويجلون الحق تعالى عن أن يجعلوه محلا لتغزيلاتهم . فلذلك ضربوا الأمثال بالمحبين والمحبوبين . من قيس ولبنى ونحو ذلك .

وكذلك مما ينبغى اجتنابه قول بعضهم — مافى الوجود إلا الله — وقولهم — إن الله فى قلوب العارفين — وإنما الصواب أن يقال : مافى الوجود فى الأزل إلا الله : ومعرفة الله فى قلوب العارفين . وإليه الإشارة بحديث (وسعى قلب عبدى المؤمن) أى وسع معرفتى من غير إحاطة بى وكذلك مما ينبغى اجتنابه قولهم — هذا زمان سوء — لأن الزمان هو الدهر والدهر هو الله ، وكذلك قول بعض الخطباء سبحان من لم يزل معبوداً لأنه عبد عند من لم يعلم كونه معبوداً بالقوة ، أى أهلا لأن يعبد لأنه يوهم قدم العالم ، وذلك كفر .

وما يجب اجتنابه قولهم — يا قديم الزمان — لأن الرب لا يتقيد

بالزمان . فهو كلام باطل . وكذلك قول بعضهم — كل مايفعله الله خير — لايهامه نفى وجود الشر فى العالم ، وإن كل مايكسبه العبد من المعاصى خير وكذلك قول فلان ، يطلع على الغيب — لأنه يوهم باطلا — وإنما الأدب أن يقال . فلان له فراسة صادقة . أو كشف أو اطلاع فقط . لئلا يزاحم الرسل فى مقام العلم والقطع . فإنه ليس للأولياء إلا الظن الصادق فقط ، الذى هو فى إصطلاحهم عبارة عن الإعتقاد الصحيح الجازم المطابق للواقع فقط . وهذا الظن هو الذى يسمونه إلهاما وفتحاً وكشفاً

وكذلك مما يجتنب قوله . قول بعضهم — باعك الله — وأقالك الله . إذا اشتغل فى البيع أو الإقالة . لأنه يوهم مذهب أهل الاتحاد . وذلك كفر

قال الامام العلامة عمر بن محمد الأشبيلى فى كتابه المسمى (لحن العوام) وليحذر من العمل بمواضع من كتاب الأحياء للغزالى ومن كتاب النفخ والتسوية له . وغير ذلك من كتب القوم . فإنها إما مدسوسة عليه أو وضعها فى أوائل أمره . ثم رجع عنها كما ذكر فى كتابه — المنقذ من الضلال . —

وكذلك يحذر من مواضع فى كتاب (القوت) لأبى طالب المكى نحو قوله — الله تعالى قوت العالم — ومن مواضع فى تفسير (مكى) ومن مواضع كثيرة فى كلام ابن ميسرة الحنبلى » .

ويعدد الشعرانى كتباً كثيرة ثم يقول .

« وليحذر أيضاً من مطالعة كتب الشيخ محي الدين بن عربى رضى الله عنه ، لعلو مراقيها ولما فيها من الكلام المدسوس على الشيخ ، لا سيما الفصوص . والفتوحات المكية . فقد أخبرنى الشيخ أبو طاهر عن شيخه عن الشيخ بدر الدين بن جماعة . أنه كان يقول « جميع ما فى كتب الشيخ

محي الدين من الأمور المخالفة لكلام العلماء مدسوس عليه . وكذلك كان يقول . الشيخ مجد الدين صاحب القاموس .(١)

ويوالى الشعرانى حملته الكبرى فيقول :

« وليحذر أيضاً من مطالعة كتب عبد الحق بن سبعين مما يوهم الحلول والاتحاد والتشبيه وأقوال الملحدين . ومنع بعضهم من سماع كلام سيدى عمر بن الفارض فى التائية . والجمهور على جواز ذلك مع التأويل » .

ويختم الشعرانى تلك الدراسة المؤمنة الصادقة التى يهدف بها إلى حماية العوام وأشباه العوام من صولة التصوف والمتصوفه بقوله .

« فهذه عدة نصائح وتحذيرات قد سقتها إليك . فزنها بميزان الشرع . وعليك بمطالعة كتب الشريعة من حديث وتفسير وفقه والاقتداء بأئمة الدين من الصحابة والتابعين وتابع التابعين ومقلديهم من الفقهاء والمتكلمين . وإياك والاجتماع بهؤلاء الجماعة الذين تظاهروا بطريقة القوم »

والشعرانى وهو يهاجم التفلسف فى التصوف . ويرفع الستار عن الدخيل والمدسوس على المتصوفة ، لا ينسى أبداً رسالته كصوفى ولا ينسى أن يكشف الستار عن حقائق العلم الصوفى الصادق الذى صدر عن وجد وحب أو عن ذوق رفيع واصطلاح صوفى يدق على من لم يتذوق الحان القوم ومقاصدهم .

ولهـــذا فهو يعقب على حملته بدفاع حار عن أقطاب التصوف وعن كلمات لهم أو اصطلاحات أولها الناس فخرجوا بالتأويل عن مقاصدهم وأهدافهم .

ومن هذا القبيل ، كلمة حجة الإسلام الغزالى المشهورة — ليس فى الإمكان أبدع مما كان — والتى أتخذها ابن تيمية وسيلة لتجريح الغزالى

---

(١) المنن جزء أول ص ٢٤٥

والتهكم به ، بدعوى أن فى هذا القول ما يشبه الحجر على قدرة الله فى الابداع المستمر .

يقول الشعرانى: كلمة الغزالى كلمة مؤمنه صادقة وإن جهلها خصومه لأن جميع الممكنات أبرزها الله على صورة ما كانت فى علمه تعالى القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة ، وفى القرآن الكريم أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

ودافع أيضاً عن شيخه الأكبر محى الدين بن عربى وأوضح مايريده من قوله فى الفتوحات وغيرها — حدثنى قلبى عن ربى . أو حدثنى ربى عن قلبى . أوحدثنى ربى عن نفسه تعالى : بارتفاع الوسائط .

يقول الشعرانى : ليس مراده ، أن الله تعالى كلمه كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما مراده أن الله تعالى يلهمه على لسان ملك الالهام بتعريف بعض أحوال . فهو من باب قوله صلى الله عليه وسلم : إن يكن فى أمتى محدثون فعمر .

ثم يقول الشعرانى ، ومما نقل عن القوم . قولهم : اللوح المحفوظ هو قلب العارف ، ليس مرادهم نفى اللوح المحفوظ وإنما مرادهم أن قلب العارف إذا انجلى ارتسم فيه كل ما كتب فى اللوح المحفوظ نظير المرآة إذا قابلها لوح مكتوب .

وقولهم أيضاً ، دخلنا حضرة الله وخرجنا عن حضرة الله . ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكانا خاصا معيناً فإن ذلك ربما يفهم منه التحيز للحق ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، وإنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقوها شهود أحدهم أنه بين يدى الله عز وجل . فما دام يشهد أنه بين يدى ربه عز وجل فهو فى حضرته . فإذا حجب خرج عن حضرته تعالى . وللشعرانى فى هذا الباب إسهاب وتفصيل لم يسبق إليه .

وبذلك أنصف الشعرانى التصوف الصادق بدفاعه الصادق كما أنصف الحقيقه بهجومه على كل من شطح أو تفلسف فأوهم كلمه ما يخدش الايمان أو يتنافى مع حقائق الاحسان .

وكان الشعرانى فى الموقفين كعهده أبدا على الجادة الواضحة والصراط المستقيم . والطريقة الوسطى .

بين الشعرانى وادعياء التصوف

فساد التصوف فى عصره

خضعت مصر لحكم المماليك حقبة طويلة كانت فيها على غير فطرتها ونهجها التاريخى فمصر منذ فجر التاريخ ، أمة مفكرة ، مؤمنة عابدة ، فهى أول أمة اهتدت إلى التوحيد وعبدت الله جل جلاله على نوره . وهى أول أمة شيدت للعبادة وللروحانية أضخم وأجل ما عرفت الإنسانية من معابد وهيا كل مقدسة .

وإلى مصر لجأت وعاشت وازدهرت اليهودية والمسيحية والإسلامية وفى مصر عاش موسى وعيسى ويوسف ، وغيرهم من الأنبياء الذين قص الله سبحانه قصصهم فى القرآن ، وغيرهم ممن لم يقصص .

فالتاريخ الروحى لمصر . تاريخ حافل . بل هو التاريخ الغالب ، بل هو سرها التاريخى الذى أمدها دائما بالحيوية والقوة ، وإذا فقدت مصر هذا السر يوما ، فقد فقدت روحها ، أو بالتالى فقدت حياتها العزيزة الكريمة .

ثم هبط أرض مصر العنصر القوقازى ، هبط أفراده أذلاء أرقاء ، وما هى إلا دورة من دورات التاريخ حتى أصبح المماليك سادة مصر وحكامها وأصبح عرش مصر نهبا لكل واثب بسيف وصائل برمح وضارب بسهم .

وأسس المماليك فى مصر قوة حربية من أعظم القوى التى عرفها العالم الإسلامى ، بل من أعظم القوى فى تاريخ العسكرية العالمية

ولكن المشاعل العلمية ، والمصابيح الإيمانية التى كانت تضىء لمصر ، وتضىء من مصر للعالم أخذ نورها يخبو فى عهد المماليك ، بل أخذ نورها يفنى ويتبدد ، وتخنقه الظلمات ، فما كان المماليك يوما من الأيام رجال فكر

أو علم ، وما كان لهم طاقة على العلم والفكر ، وما كانت تصوراتهم عن الدين إلا تصورات جاهلة حمقاء ، انحصرت فى دائرة واحدة هى دائرة التعصب الحاد الأحمق للاسلام دون فهم له ، أو استنارة بآدابه ونهجه .

وامتد حكم المماليك وطالت أيامه ، فأخذت القبضة الفولاذية تضعف وأخذ التناحر على الحكم بينهم يشتد ويعنف . وغدت مصر مرتعا لأقسى أنواع النهب والسلب وأشد أنواع الظلم والاستبداد فلم يعد هناك حصانة لمال أو عرض أو حياة ، بل كل شىء للاقوى ولا شىء أبداً للضعيف العاجز .

وانعزلت مصر عن العالم ، وأقيم بينها وبين الحضارات العالمية سدود وقيود ، وبعدت مصر عن ينابيع الهدى الإيمانى الإسلامى . فقامت دولة الخرافة والأسطورة ، وساد العصر الذى يسمى بحق عصر الدراويش . أو دولة الأولياء الكاذبين ، وهو العصر الذى لا تزال بقاياه تشاهد فى بعض مواكب رجال الطرق الصوفية التى تذرع ريف مصر بطبولها الساذجة ، واعلامها الممزقة . وأهدافها الأسطورية البدائية

العصر الذى لاتزال بقاياه تشاهد فى تلك المهازل التى تحف بأضرحة الأولياء فى القاهرة وعواصم المدن ، المهازل التى يسمى أصحابها بالدراويش والمجاذيب وضاربى الرمل وكاشفى الغيب ، وصانعى المعجزات !! ؟؟

ومن عجب أن الدين الإسلامى ، وهو الذى ابتعث البدو الأميين من صحاريهم ، ليكونوا هداة عالميين فى ساحات العلم والحضارة وما إلى العلم والحضارة ، وقوادا فاتحين فى ميادين الحرب والجهاد وما إلى الحرب والجهاد ، قد تحول فى مصر فى أواخر عهد المماليك ، أو حوله أصحابه إلى مجموعة ضخمة هائلة من البدع والخرافات والأساطير الذليلة ، إلى مجموعة ضخمة هائلة من الغموض والابهام والتحلل من الاخـــلاق والتمرد على الآداب والشعوذة السمجة الوقحة .

وتستر الدجالون والمشعوذون والمتحللون وراء التصوف يتخذونه شعاراً ودثاراً وحماية لهم، وباسم هذا التصوف الزائف ارتكبت أشنع الجرائم ضد الدين ، ونهبت الأموال ، وهتكت الأعراض ، وهدمت الفرائض وأهدرت الآداب .

وبعد أن كانت علة التصوف فى عصور الارتفاع العلمى ، هى السبحات الفلسفية التى دست عليه وتسربت إلى مجراه من الفلسفات العالمية المحيطة به ، أصبحت علة التصوف هى تلك العامية المتحللة من الاخلاق ، المتهالكة على الشهوات المهدرة لكل المقدسات .

حتى رأينا من يخطب على المنابر عارياً ، ويخطب فى الناس قائلا « السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين وجامع طولون والحمد لله رب العالمين » فيحصل للناس بسط عظيم فيما يرويه رجال التاريخ[1] .

ومن يقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم مترنماً على طريقة قراءة القرآن «وما أنتم فى تصديق هود بصادقين ولقد أرسل الله لنا بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين[2] » .

ثم يعقب على ذلك قائلا « اللهم اجعل ثواب ماقرأناه من الكلام العزيز فى صحائف فلان وفلان » .

ويعقب الشعرانى على ترجمته قائلا « ولم أسمع أحداً ينكر عليه شيئامن حاله . بل يعدون رؤيته عيداً عندهم

وجاء الشعرانى كما يجىء المطر للأرض المجدبة التى يريد الله أن يبعثها ويحييها لينفع بها عباده .

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦٠ وعلى مبارك ج ٦ ص ٣٣

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤

جاء الشعرانى فى اللحظة الحاسمة التى يهيها الله جل جلاله لخلقه لتكون فاصلا بين عهدين،وفيصلا بين فكرتين،وبداية لصفحة جديدة وحياة جديدة .

جاء الشعرانى فرأى أمة تسبح فى الظلمات ، ورأى دولة الدراويش ، دولة الإقطاع الروحى تمرح فى الشهوات . وشاهد مدعى الولاية الكاذبين ومتزعمى الطرق الصوفية المضللين . وليس فيهم أو بينهم مصباح واحد يرسل شعاعا من نوره ليهدى الحيارى إلى الله .

فأوقف قلبه ولسانه ، وعقله وحياته . على الجهاد الأكبر لتطهير المحراب الصوفى من الدجل والشعوذة وتحويل التيار الأعظم المندفع إلى الهاوية إلى الجادة المستقيمه الواضحة .

ولم تكن الرسالة هينة . ولم تكن الغايه مأمونة السبل . فالطريق شاق مهلك تقوم فيه الأشواك وتعمره الأهوال، وتغمره الزلازل والمتاعب .
والشعرانى لم يكن فى مناعة من حياته . بل كانت تنوشه أقلام الفقهاء وألسنتهم فقد جاء مزلزلا لمكانتهم محطما لصولتهم . وتخدشه أنياب رجال الكلام وأظفارهم ، فهو معهم فى معركة لم يهدأ أوارها بعد . ويرمقه رجال الحكم والولاة بعين الحذر والغضب ، فهو دائما ينازعهم الأمر . منتصراً للضعفاء ومن فى حكم الضعفاء من أصحاب الحاجات وما أكثرهم .

والمسبحات تأخذه من كل جانب ولمحترفى التصوف دولة ولزعمائهم صولة ومكانة شعبية لا تسامى ولا تضارع .

ولكن الشعرانى رغم سياسته التى سنعرض لها بعد ، ورغم ليونة قلمه فى جداله مع الفقهاء وحواره مع رجال التوحيد والكلام لم تزلزله الأهوال التى تحف به . بل تقدم إلى المعركة الكبرى عنيفا قاسيا على غير عادته . لأنه يعلم علم اليقين . أنه ينازل فئة هى أخطر على الإسلام ومقدساته

من كل خصم وعدو . تقدم ليحطم الهيكل المدنس على عباده . وليقوض الصرح الظالم على اللائذين به والملتجئين إليه .

ثم ليبنى على الانقاض صرح الايمان الصادق وهيكل التصوف الذى هو قمة الايمان ، وخلاصة الدين ، ونوره الوضاء المبين .

وفى سبيل هذه الغاية المقدسة ألف الشعرانى كتابه العظيم ، المنن ، لا ليتحدث عن نفسه ولا ليباهى بأخلاقه وأعماله ومقاماته ، كما ظن بعض المستشرقين والسائرين تحت ألويتهم من كتابنا المحدثين . ولكن ليضع أمام أدعياء التصوف . وليضع أمام الامة الاسلامية التى خدعت فى هؤلاء الأدعياء المثل العليا للأخلاق المحمدية ، والمثل العليا للاداب الربانية ، فقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه خلقه القرآن كما تقول السيدة عائشة رضوان الله عليها وكل متصوف صادق هو على سنن نبيه العظيم وعلى هدى رسوله الكريم — لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة — .

والمنن من الناحية الموضعية أعظم كتاب أخلاق فى تاريخ العربية . بل لعله أعظم كتاب للمثاليات الإيمانية الصوفية فى تاريخ التعبد الإسلامى .

فلقد رسم الشعرانى فى كتابه الفذ الخطوط العليا العريضة للآداب الاسلامية من وجدانية ونفسية وعملية . كما رسم الخطوط العريضة الواضحة لما يقابلها من سيئات منحدرة هابطة إلى أسفل . وما يحف بها من شهوات وما يلوذ بها من أحقاد النفس ووسائس القلب وما يعترك فى الطبع الانسانى من غل وحسد وشهوات .

فالمنن إذن من الناحية الفنية ، فيصلا مبيناً بين التصوف الصادق الذى يرتكز على الخلق المحمدى . وبين أدعياء التصوف الهابطين بأخلاقهم وأعمالهم إلى ما ينكره الاسلام ويبرأ منه الايمان ولا يرضى عنه الخلق الكريم .

ولا يضير الشعرانى أنه عمد فى بعض فصول هذا الكتاب إلى ما يشبه الاسلوب العامى . أو الوعظ القصصى ، فلقدهدف الشعرانى منذخط السطر الاول فى هذا الكتاب إلى مخاطبة الجماهير العامة فى عصره وهى الجماهير التى ضللها أدعياء التصوف . وعبث بها الاقطاعيون الروحانيون .

والجماهير العامة فى كل الأمم وفى عصر الشعرانى خاصة لا يصلح لها سوى هذا الاسلوب السهل الرقراق . وسوى هـذا اللون من الارشاد والتوجيه المبين الواضح القريب من القلوب والارواح .

بل لعل هذا اللون من البيان الذى يشبه الدردشة الكلامية هو الاسلوب الحكيم الذى لا أسلوب سواه يصلح للغاية التى هدف إليها الشعرانى ، ورسم خطوطها ، وحدد أهدافها .

يقول الشعرانى فى مقدمة هذا الكتاب .

« فهذه جملة من النعم والاخلاق التى تفضل الحق تعالى بها على أوائل دخولى فى محبة طريق القوم رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، كان الباعث لى على تأليفها ورقمها فى هذه الطروس أموراً : أحدها ليقتدى بى اخوانى فيها ، وكنت آمرهم بالتخلق بها فلا يسمعون ، فقال لى يوماً جماعة منهم هذه الأخلاق التى تأمرنا بها لا نجد أحداً تخلق بها من أهل عصرنا حتى نقتدى به فيها . فاستخرت الله تعالى وأظهرت لهم تخلق بها فاتبعونى عليها وما بقى لكم حجة فى ترك التخلق بها فلولا ذلك لربما كان الكتمان لها أولى » .

علم الشعرانى أن الأخلاق العالية لا بد أن يكون لها رمز تتمثل فيه ، لتشاهدها الأعين حية متحركة قائمة بين الناس ، وعلم أن أصحابه وأهل عصره لا يمكن أن يتحملوا تلك الثورة الايمانية التى يبشر بها ويعمل أعلامها ، فرمز

لهذه الأخلاق بنفسه . هذه الأخلاق التى قال معاصروه عنها ، إنهم لم يروا أحداً متخلقاً بها .

وليس معنى هذا أن الشعرانى كان بعيداً عن هذه الأخلاق أو كان مدعياً فى نسبتها إلى نفسه ، ولكننا قصدنا أنه صاغها على نفسه ليكون وقعها فى معاصريه أكمل وأتم .

وفى سبيل هذه الغاية العليا أيضاً ألف الشعرانى كتابه الفريد البديع (لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية) .

والعهود المحمدية التى عناها الشعرانى هى خلاصة الدين الربانى أو صفوة الأخلاق المحمدية ، وكل أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه صفوة .

ولقد وضع الشعرانى هذا الكتاب ، ليظهر الفرق الشاسع بين أخلاق رسول الله ﷺ وهو المثل الأعلى لكل مسلم وهو الإمام الاكبر لكل صوفى ، وبين أخلاق الشيوخ المتصدرين لقيادة مواكب التصوف الزائف حتى يحصحص الحق ، وينبلج الصبح المنير ، ويتبين كل من ينشد الهدى ، هل هؤلاء الشيوخ المتصدرون لقيادة التصوف ، أدعياء جهلة أم مؤمنون بررة . . ؟

يقول الشعرانى فى مقدمة هذا الكتاب :

« هذا كتاب نفيس لم يسبقنى أحد إلى وضع مثاله ، ولا أظن أحداً نسج على منواله ، ضمنته جميع العهود التى بلغتنى عن رسول الله من فعل المأمورات وترك المنهيات .

وكان الباعث لى على تأليفه مارأيته من كثرة تفتيش الاخوان على ما نقص من دنياهم ولم أر أحد منهم يفتش على ما نقص من أمور دينه إلا قليلا فأخذتنى الغيرة الإيمانية عليهم وعلى دينهم فوضعت لهم هذا الكتاب

المنبه لكل انسان على ما نقص من أمور دينه . فن أراد من الاخوان أن يعرف ماذهب من دينه فلينظر فى أى عهد ذكرته له فى هذا الكتاب ويتأمل نفسه ، يعرف يقينا ما أخل به من أحكام دينه فيأخذ فى التدارك أو الندم والاستغفار .

ثم اعلم يا أخى أن طريق العمل بالكتاب والسنة قد توعرت فى هذا الزمان وعز سالكها لأمور عرضت فى الطريق يطول شرحها حتى صار الانسان يرى الاخلاق المحمدية فلا يقدر على الوصول إلى التخلق بشىء منها فلذلك كنت أقول فى غالب عهود الكتاب، وهذا العهد يحتاج من يعمل به إلى شيخ يسلك به الطريق ويزيل من طريقه الموانع » .

وفى سبيل الغاية التى رسمها الشعرانى وهى الثورة على أدعياء التصوف ورسم المثل العليا للتصوف الصادق القائم على الكتاب والسنة ألف كتابه الصوفى الرائع — الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية — خصصه لتوضيح المناهج الصوفية النقية ، والصلات التى تربط الشيخ بالمريد والمريد بالشيخ ، والآداب الواجبة على كل منهما ، كما شرح فيه معانى الإلهام الصوفى ودقائق ورقائق الطريق الربانى وما فيه من أنوار وما تتطلبه تلك الأنوار من آداب وأخلاق . لأن النور ثمرة الخلق . والإلهام ثمرة العبادة الصادقة والطاعة المؤمنة .

يقول الشعرانى فى مقدمة هذا الكتاب .

« وقد سألنى بعض الفقراء — الصوفية — من الاخوان نفع الله بهم أن أملى جملة من آداب العبودية ، آداب الفقراء عموماً وخصوصاً ، ومايدخل على كل طائفة من الدسائس فى مقاصدهم لأن الشيطان لهم بالمرصاد ولا ينجو منه إلا القليل من عباد الله » .

ولم نذكر هذه الكتب الثلاثة على سبيل الحصر وإنما ذكرناها على سبيل الرمز والمثال ، فالحقيقة أن كل كتب الشعرانى التى أربت على المائة لم تخل من هذا التوجيه ، ولم تخل من هذا اللون من التوضيح والإرشاد .

هذا هو جانب البناء فى صراع الشعرانى مع أدعياء التصوف أما الجانب الآخر فهو الصراع العنيف المر ، والمعركة القاسية التى خاض الشعرانى غمارها فى وجه العاصفة . ويالها من عاصفة .

فقد روت لنا كتب المناقب أن مصر حفلت فى عصر الشعرانى بطوائف من الدراويش يخطئهم العدد واكتظت الشوارع والطرق بمواكبهم والبيوت بولائمهم والزوايا والمساجد باجتماعاتهم ، وانتشر الشيوخ والأتباع فى الريف والحضر وتغلغلوا فى المدن والقرى ، وامتد سلطانهم إلى كافة طوائف الشعب وأضحى المتصوفة فوق القانون وفوق العرف وفوق الدين . واقتسموا بينهم مناطق مصر . فاستولى كل ولى على مساحة من الأرض يتصرف فى أهلها ويستغل مواردها .

وكان على الشعب أن يكفلهم ويقوم بحاجتهم . وينظم لهم الموالد والولائم . وقد كان من أظهر مميزات التصوف فى هذا العصر تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة إجتماعية تتمثل فى حياة أتباعه فى رحاب الزوايا والتكايا حيث يعيشون مع زوجاتهم من فيض الأوقاف الضخمة التى تحبس عليهم ، والأرزاق التى تجرى من أجلهم وكانت هذه العطايا من الكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم ترفا ، وكان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار فى الاسواق تهافت عليه الناس وتكاثر حوله عديدهم وسدوا طريقه ، وانهالوا على يديه وقدميه تقبيلا ولثما تقرباً إلى الله وزلفى . . .»[١]

---

(١) التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى

ويروى لنا الشعرانى من أخلاق هذه الطائفة القوية السائدة عجباً أى عجب . لا نكاد نتصوره فى عهدنا مع أنه كان اللون الغالب السائد فى عصر الشعرانى فى دولة المجاذيب والدراويش .

كان الجهل الفاضح . والتحلل الشائن من الدين ، بل التمرد على الدين هو طابع الشيخ والمريد فى هذا العصر .

يروى لنا الشعرانى فى معرض الحديث عن جهالة مشايخ الأحمدية والبرهامية فى عصره أنه سأل واحد منهم عن قواعد الإيمان فقال لا أدرى . فسأله عن فرائض الوضوء . فقال لا أدرى ! ؟ فسأله عن شروط الصلاة فقال لا أدرى ! ؟

ويقول الشعرانى معلقاً على هذا « مع أنه شيخ كبير فى زاوية يأخذ العهد ويتصدر الوعظ[١] » .

ويحدثنا الشعرانى عن شيخ كبير من هؤلاء الشيوخ جاء لزيارة الشعرانى فسأله الشعرانى عن بعض مسائل فى الدين . فصرح مفاخراً بأنه لم يقرأ فى العلم شيئاً . لأنه يحتقر العلم . ولا يعرف عن شروط الصلاة والوضوء كثيراً ولا قليلا . لأنه فوق العبادات[٢] .

ويروى لنا المناوى فى طبقاته الكبرى . أن زعامة التصوف قد آلت بعد الفتح العثمانى إلى رجلين . يمثلان المعسكرين ، معسكر التصوف العلمى الربانى ، ومعسكر الادعياء الجهلة هما الشعرانى ، ومحمد كريم الخلوتى .

ثم يقص علينا المناوى قصة اللقاء بين الرجلين الزعيمين :

---

(١) قواعد الصوفية ص ١٢٦
(٢) تنبيه المغترين ص ٤

قال المناوى .

« سأل الشعرانى الخلوتى عن مسألة فى الوضوء فأعلن هذا جهله بها رغم زعامته وزعمه ما أصاب من شهرة بين الناس والأمراء ، فقال له الشعرانى إنك لا تصير صوفيا بغير علم . فقال الخلوتى علمنى . فشرع الشعرانى فى تعليمه ثم زاره مرة ثانية ليواصل تعليمه فأغلق هذا باب زاويته فى وجهه فعاد مرة ثالثة عسى أن يتمكن من تعليمه فأساء الخلوتى استقباله ، وأغلق الباب فى وجهه ، وقال لمريديه ساخراً — إن الشيخ الشعرانى طلب أن يجعلنى فقيها وأنا صوفى — قال الشعرانى ففهمت من كلامه أنه اعتقد إنى دعوته إلى أمر فيه نقص . وقد أخذ الخلوتى ومريدوه يهزأون بالشعرانى ويقولون : إنه يريد أن يجعلنا فقهاء مثله[1] » .

ويصف لنا الاستاذ — أدوار لين — الذى زار مصر بعد انقضاء العصر العثمانى بنيف وعشرين عاماً فى كتابه القيم عن مصر خلال هذا العهد ، زعماء التصوف فى هذا العصر وصفاً عجباً يقول .

« ومعظم الأولياء المعروفين فى مصر مجانين أو مخابيل أو دجالون يسير بعضهم فى الشوارع عارياً كامل العرى . فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير . حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم . بل يأذن لهؤلاء الجبناء أحياناً بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحراراً كاملى الحرية ولا يعتبر هذا فى عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة . بل هم يؤولون ما يشاهدون وما أعجب تأويلهم[2] » .

هذا موقف الشيوخ والزعماء . أما موقف المريدين والاتباع فيكفى

---

(١) طبقات المناوى الكبرى ص ٥١٩

(٢) كتاب الاستاذ لين ص ٢٣٤

أن نقول : أن أحدهم احتاج إلى المال فى تزويج ابنة له فمضى إلى أحد التجار ملتمساً قرضا فى نظير رهينة من شعر أخذه من رأس شيخه . فقال له التاجر ساخراً متهكماً . لو أعطيتنى أردبا من شعر شيخك ما أخذته بدانق،

ولم يحزن المريد لحرمانه من المال بل كان حزنه الأكبر لسخرية الناس من شعر شيخه المقدس الذى لا يقدر بمال !!؟

رأى الشعرانى ذلك البلاء المحيط بالأمة الإسلامية فى مصر فسدد قلمه وأرسل لسانه فى ثورة ملتهبة . وحملة صادقة . تجتث أصول هذا البلاء وتحطم صرح هذا البهتان .

وأخذ الشعرانى ينقض دعاوى تلك الطوائف متعقبا لخطاها مترصداً لحركاتها . مدللا بالآيات الكريمة . والأحاديث الشريفة على مروقهم من الدين وبراءتهم من الإيمان .

وأفتى الشعرانى فيما أفتى بأن الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمدنية والدسوقية فى عهده . خارجون على شريعة الله لأن أفعالهم يكذبها طريق شيوخهم السابقين . كما يكذبها الكتاب والسنة وهما : أصل الإسلام . وبرهانه المبين .

وتعقب الشعرانى شيوخ عهده ، شيخا فشيخاً مظهراً جهلهم بل كفرهم وسوء أدبهم وأنهم أضل من الانعام . وأن طريق التصوف وهو الطهارة الكاملة. والزهد الشامل قد أصبح على أيديهم طريقاً إلى الشحاذة والتسول ، وهان حتى فى أعين الطغام كما يقول .

ثم وضع الشعرانى رسالته ـ ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى — فكانت السهم الأكبر ، هاجم بها مدعى الولاية زوراوبهتاناً وعحترفى التصوف

كذباً ونفاقاً . قائلا : إنهم يقنعون بلبس الزى . وإن سألت شيخاً منهم عن قواعد الإيمـــان . قال : لا أدرى . أو فرائض الوضوء قال : لا أدرى ؟ ولا يعترف الإسلام بإسلام من يجهل قواعد دينه ، فضلا عن أن يكون شيخاً أو مرشداً .

وألف الشعرانى كتبه الكبرى . تنبيه المغترين ، والمنن الكبرى. والعهود المحمدية . والأنوار القدسـية . وقواعد الصوفية . ليجلو الأخلاق الصوفية المثالية التى عرفها التصوف الصادق ، وليظهر الفرق البعيد بينه وبين هؤلاء المتصوفين المرتزقة الزائفين . الذين لعنوا أينما ثقفوا . وباؤا بغضب من الله ، وبراءة من الرسول .

موقف الشعرانى

من المتصوفة العاطلين

وقد جر هذا اللون من التصوف الكاذب على الحياة الإجتماعية فى مصر نكبات نالت من اقتصادياتها وعزائم بنيها، وأثرت فى مكانتها الدولية.

فلقد كانت البطالة والتعطل من المبادىء العامة المحترمة المعترف بها فى بيئات متصوفة هذا العصر.

فكل من تزيا بزى المتصوفة ترك العمل وانقطع إلى الزاوية أو التكية الخاصة بشيخه، ورأى أن من حقه على الناس أن يطعموه، وأن يقوموا بمعاشه بل وبمعاش أسرته أيضاً.

وقبلت الجماهير المصرية من هؤلاء الدراويش هذا الوضع، بل اعتبروا تقديم الطعام والملابس وما إلى الطعام والملبس إليهم واجباً يحتمه الدين عليهم.

وللكسب والعمل فى الاسلام مكانة لا يضارعها إلا الجهاد فى سبيل الله، مر على النبي صلوات الله وسلامه عليه رجل، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه فى الكسب والارتزاق، ما جعلهم يتحدثون فيه. قالوا: يارسول الله. لو كان هذا فى سبيل الله: فقال. صلوات الله عليه إن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله. وإن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله. وإن كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو فى سبيل الله».

وعاد بعض صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من سفر فأخذوا يحدثون الرسول عن رجل كان معهم كثير العبادة، كثير الصلاة، كثير الصوم متفرغا أبدا لتقواه. فقال لهم النبي، من كان يقوم به فى معيشته قالوا أخوه. قال أخوه أعبد منه.

ذلك هو منطق الإسلام ولكن ادعياء التصوف أبدلوه ونقضوه كما أبدلوا ونقضوا كل عرى الإسلام .

وأدرك الشعرانى خطورة هذا الأمر على الفكرة الاسلامية وعلى الناحية الاقتصادية فى الامة الاسلامية . فخصص جانباً كبيراً من حملته على أدعياء التصوف ، لتلك النقطة الخطيرة .

دعا الشعرانى إلى الجمع بين العبادة والعمل باعتبارهما دعامة الحياة وساق الأدلة التاريخية على حرص كبار الصالحين من أهل التصوف على تجنب العيش على صدقات المحسنين .

وفضل الشعرانى الصناع على العباد . لأن هؤلاء يساهمون فى نفع الناس بينما العبادة يقتصر نفعها على صاحبها . وكان يقول ما أجمل أن يجعل الخياط مثلا أبرته سبحته . وأن يجعل النجار ـ منشاره سبحته ، ذلك هو التسبيح النافع المقبول .

بل لقد آثر الشعرانى فى دعوته حياة البدن على حياة الروح لأن هذه قد تفرعت عن حياة الجسم وهى تتأثر بما يعتريه من وجوه العسر واليسر . حتى ليفضى الضنك إلى تشتت الفكر وبلبلة الخاطر ـ ولذلك كان أبو حنيفة يقول ـ لا تستشر من ليس فى بيته دقيق .

ويصرح الشعرانى بأن ترك الكسب بالعمل المشروع والتماس الرزق عند المحسنين كدأب متصوفة عصره جهل بمقام التوكل الصحيح [١] .

ومن الجهالة كما يقول الشعرانى ذم الدنيا أطلاقاً . وآفة الدنيا النساء والمال والجاه والولد . ولكن الكامل لا يهرب من هذه الآفات بل يستوعبها جميعاً . لأن دنيا العارف فى يده وليست فى قلبه .

---

(١) العهود المحمدية ص ٣٠٦ .

ومن هنا كان النكاح كما يقول الشعرانى عبادة . بل النكاح عنده أعظم النوافل التى تدنى الانسان من ربه وتهيئه لتلقى العلم اللدنى .

والزهد عند الكمل كما يقول الشعرانى . لا يكون عن خلو اليد من متاع الدنيا وإنما يكون بخلو القلب مع امتلاء اليد . وكمال المقام فى زهد القلب لا يتحقق بغير الزهد فيما يملك الانسان التصرف فيه من غير مانع، أما الزهد مع خلو اليد فربما كان مصدره الاملاق ولهذا قيل ، شرط الداعى إلى الله ألا يكون كامل التجرد من دنياه

وهذا بالاضافة إلى أن مثل هذا الاملاق يحوج صاحبه إلى سؤال الناس بالحال أو بالمقال . وبهذا يهون فى نفوسهم أمره . ويضعف عندهم تأثير تعاليمه . وعلى الضد من ذلك إن كان صاحب مال يفيض عن حياته فينفق منه على مريديه وغيرهم من المحتاجين [١]

وتلك رحابة أفق من الشعرانى فى فهم الدنيا وتصور رسالة العابد الزاهد فيها . قلما نجد لها مثيلا فى تفكير رجال الدين .

ذلك موقف الشعرانى من أدعياء التصوف ، وليس معنى هذا أن هؤلاء الأدعياء ، وهم قوة ضخمة ، فعالة فى المجتمع المصرى ، قد استكانوا لحملة الشعرانى . وألقوا السلاح أمامها بغير حرب ولا قتال .

لقد هاجموا الشعرانى بكل سلاح . واعتدوا عليه ، وتربصوا به الدوائر وملئوا الدنيا هتافا وصياحا بالتشهير به ، والحملة عليه ، بل أرصدوا له من يقتله غيلة وغدرا .

وقد أشار المناوى . والشبلى إلى التعاون الذى قام سراً بين هؤلاء المتصوفة وبين الفقهاء ضد الشعرانى فى مؤامرة الأزهر الكبرى التى اتهم فيها الشعرانى بالكفر كما سيأتى بيانه عند الحديث عن صراعه مع الفقهاء

---

(١) العهود المحمدية ص ٦٥ .

ولقد تحطمت حملات أدعياء التصوف على الشعرانى . لأنها صادفت لدى الشعرانى قوة إيمانية لا تغالب ، وقوة علمية لا تصاول ، وقوة نفسية لا تسمو إليها الأحداث . حتى ليهتف الشعرانى واثقا بنفسه . اللهم أفضحنا ولا تسترنا حتى يتميز الخبيث من الطيب . وهى كلمة لا يجرؤ على قولها إلا رجل أى رجل .

رجل يعلم ماهو عمله . وما هى مكانته ، وأنه عمل لا تلحق به الشوائب وأنها مكانة لا تدنو منها الشبهات .

بينما أدت حملة الشعرانى إلى القضاء على نفوذ هؤلاء الشيوخ الجهلة الأدعياء ، كما أثمرت حركة صوفية صالحة صادقة عاملة مبصرة .

حركة تصفها كتب التاريخ والمناقب بأنها عادت بالتصوف إلى عصوره الأولى . إيمانا وزهدا . ومعرفة وعلماً ونورا يرشد المسلمين إلى أنبل مافى الحياة من أخلاقيات ومثاليات .

وحسب الشعرانى هذه الرسالة وحدها . فبمثلها يخلد العلماء المجاهدون مع أنها كانت جزءاً من حياته . ولم تكن كل رسالته :

الشعرانى

وفقهاء الأزهر

الصراع بين الفقه والتصوف :

الفقه والتصوف ، صورتان من صور النشاط العلمى فى التفكير الاسلامى ، ووجهان من أوجه التشريع والأخلاق فى المجال الروحى للرسالة المحمدية ومع هذا فالخصومة بينهما تقليدية تاريخية ، منذ عرف الناس التصوف والفقه .

ولقد كان الفقيه فى صدر الاسلام ، هو النموذج الكامل للرجل الكامل فى الاسلام، كان الفقيه هو العابد العالم الزاهد المجاهد ، المجاهر بكلمة الحق القائم على الجادة يرشد الناس بعلمه وعمله ويأخذهم بأيديهم إلى ما يرضى الله وإلى ما شرع الله ، وإلى ما فيه خير الأمة الاسلامية . والمجموعة البشرية كافة ، وبذلك كان الفقيه والصوفى شيئاً واحداً ، وكان التصوف والفقه اسمان لعلم مشترك .

كان الفقيه هكذا ، يوم كان الفقه هو روح الإسلام وجوهر الرسالة المحمدية . يوم كان الفقه تشريعاً وخلقاً . وعلما وعملا ، يوم كان الفقه لا يعرف الحيل الشرعية . ولا التفريعات الافتراضية الشاذة ، ولا ألاعيب الألفاظ التى تقتنص الرخص وتستهدف الغلبة فى ميادين الجدل والحوار .

ثم أخذ الفقه الذى نعرفه اليوم يتكون شيئا فشيئا . بل أخذ يبتعد شيئا فشيئا عن أخلاقياته ومثالياته وصفاته الأول ، وأخذت ملامحه تتبدل وتتغير وتتلون بألوان الثقافات التى تسربت إليه وتقنعت به ، وتسترت وراء تشريعاته .

فغدا الفقه علما أكثر منه عملا . وأصبح كتاباً للعقول أكثر منه مادة وتوجيهاً للقلوب ، بل أصبح وسيلة للحياة وسلماً لمناصبها وزخرفها .

وبذلك خلع الفقيه أردية العباد ليرتدى أزياء رجال القانون ، وترك محاريب التقوى ليحتل مناصب الدنيا ، وأعرض عن الأخلاقيات والمثاليات ليسبح مع السابحين وليثب مع الواثبين إلى لمع الجاه ومتاع الحياة ، وما تزخر به الدنيا من مفاتن ومباهج .

ومن هنا انفصل الفقه عن التصوف ، أو انفصل المتصوفة عن الفقهاء واختلفا طريقا ونهجا ، وغاية وهدفا .

يقول ابن خلدون فى مقدمته متحدثاً عن نشأة التصوف وعن سمات أصحابه :

وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . طريقة الحق والهداية . وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، ولما نشأ الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على الله باسم الصوفية .

اختص المتصوفة بشهادة الكاتب الكبير ابن خلدون . بالأخلاق الإسلامية التى كان عليها الصحابة رضوان الله عليهم ، وبالاقبال على الله والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يتنافس فيه الناس ، بل فيما يتقاتل عليه القطيع العام من البشرية .

واختص المتصوفة أيضاً بأنهم ربطوا بين العلم والعمل ، فالفقيه عندهم هو العالم العابد ، هو الذى ينبع إيمانه من قلبه لا من عقله ، هو الذى

يطابق عمله علمه ، لأن العقيدة هي العمل . ولأن التعبد شرط العلم الديني .

كما امتاز المتصوفة بابتعادهم عن الجدليات اللفظية ، والتفريعات الافتراضية التي تباعد بين المسلم وجوهر دينه ، والتي تشغل العقل الاسلامي عن واجبه الأول وهدفه الأسمى . واعتبروها سفسطة دخيلة على الاسلام بعيدة عن روحه الفطرية السليمة ، أولى منها ثم أولى الاشتغال بما يطهر القلب ويزكي الجوارح ويلهم الروح طاعة الله والعمل على رضاه .

وعلى ضوء هذه العقيدة آمن المتصوفة بأن رجال الفقه المتأخرين أو أكثرهم انحرفوا عن مناهجه الاسلامية ، ولم يقوموا بجوانبه التعبدية والأخلاقية ؛ فغدوا رجال قانون وتشريع . لا رجال عقيدة ودين .

عن عمران القصير قال : سألت الحسن البصري عن شيء . فقلت : إن الفقهاء يقولون كذا وكذا ، فقال : وهل رأيت فقيها بعينك إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه عز وجل .

وكان أبو طالب المكي يقول :

علماء الدنيا — أي الفقهاء — قعدوا على طريق الآخرة فلا هم نفذوا ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل ؛ وكان يشبههم بالقبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى (١) .

وكان الغزالي وهو الفقيه الأصولي الكبير يقول :

صارت كلمة الفقه إلى تفريقات الطلاق ، وصور الايمان والعتق المفروضة ووجوه السلم وغير ذلك مما لا يحصل به إنذار ولا تخويف مما كان التجرد

---

(١) قوت القلوب ج ١ ص ١٤١ .

له والاكثار منه وحفظ المقالات المتعلقه به يقسى القلب وينزع الخشية منه ، صارت إلى هذا بعد أن كانت عنواناً على معرفة دقائق النفس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطه بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة مع امتلاء القلب بخوف الله ورجائه .

وكان أبو العباس يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه من علم ولم يشاركونا فيما نحن فيه من عبادة وأخلاق .

ورجال الفقه من ناحيتهم نظروا فرؤا أن التصوف كلمة عامة غير محددة بالحدود التى تتحدد بها العلوم ، وأن المحراب الصوفى قد امتلأ بطوائف شتى من بينها الدخيل والأصيل .

كما شاهدوا بأعين فزعة جزعة المتصوفة وهم يكونون لأنفسهم علوماً ومعارف من إلهامات الروح ومعارج القلوب ، وأنهم قد ابتدعوا فنوناً فى المحبة الإلهية وما تحتوى عليه هذه المحبة من وجد وشوق وجذب وفناء وسر وأسرار ، ومبتكرين أيضاً ألواناً أخلاقية فى الذكر والخلوة والمناجاة ومثاليات تطوف حول عبادات أوجبوها على أنفسهم فوق الفرائض والنوافل مقيمين من ذلك كله دستوراً ضخماً يدور حول أمراض القلب وأدويتها ، وخفايا النفوس ووساوسها ، ومجالات الروح وإلهاماتها .

وكل هذا بدا فى نظر الفقهاء أو فى نظر أكثرهم ابتداعا فى الدين ، وانحرافاً عن الحياة المثلى ، وتمرداً على ما اصطلحت عليه العقول فى بناء الحياة الدنيا .

وأخطر من هذا المظهر الدنيوى بينهما ، فقد آمن رجال الفقه بأنهم وحدهم سادة الجماهير . وأنهم وحدهم سدنة الدين وحراس نبعه المقدس ، وليس لغيرهم أن يرتدى ثوب الدين وقداسة هذا الثوب . وليس لغيرهم أن يقول فى الدين برأى أو يلقى فى مشكلاته بدليل أو حجة .

ومع إيمان الفقهاء بهذا فقد انتزع المتصوفة الجماهير من قبضة الفقهاء وتزعموها دونهم ، واحتفظوا بهذه الزعامة على التاريخ رغم ما بذل فى سبيل هدمها وزلزلتها .

وكان هذا وحده كفيلا بأن يزكى نار الخصومة . وأن يلهب الحقد فى قلوب الفقهاء فيعلنوها حرباً قاسية على التصوف والمتصوفة . حرباً استغلت فيها كافة الأسلحة من التكفير كما حدث فى محنة التصوف الكبرى التى تعرف فى التاريخ ، بمحنة غلام الخليل ، حيث قدم للموت . أبو على الدقاق . وأبو الحسين النورى وغيرهما من أئمة التصوف باسم الكفر والزندقة .

إلى الدس الرخيص لدى الأمراء والملوك بدعوى حماية العرش وتدبير المؤامرات كما حدث فى مأساة الحلاج ونكبة السهروردى .

إلى القتل الغيلة فى جنح الظلام كما حدث للمناوى تلميذ الشعرانى الأكبر وصاحب الكواكب الدرية فى طبقات الصوفية .

ورغم تلك الخصومة الحادة التى حملها جمهرة الفقهاء للتصوف والمتصوفه كان أئمة الفقه جميعا ، من المتصوفة خلقا وعملا وحبا بلا استثناء مما يحملنا على الاعتقاد بأن أساس الخصومة دنيوياً لا دينيا .

كان أبو حنيفة فقيهاً صوفيا ، وكان الشافعى يرسل دقائق المسائل الفقهية إلى أبى حمزة الصوفى ويقول علمنا ياصوفى ، وكان يقول : استفدت من الصوفية طول صحبتى لهم سنين . قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم : إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر .

وكان أحمد بن حنبل يتنسك تنسكا صوفيا ويأمر ابنه بملازمة الصوفية ليصفو له دينه ، وقد سئل من الناس : فقال العلماء . ومن الملوك فقال : الصوفية . ومن السفلة فقال : الذين يعيشون بدينهم .

وكذلك كان مالك والليث بن سعد وسفيان الثورى . حتى إن المتصوفة قد أرخوا لهؤلاء جميعا فى طبقاتهم باعتبارهم من أئمة التصوف ورجاله الأول .

وكذلك كان كبار المتصوفة فقهاء علماء أرخ لهم الفقهاء فى طبقاتهم على اعتبارهم من السادة الفقهاء رجال التشريع ، كالجنيد والحسن البصرى ومحيى الدين بن عربى والغزالى والشعرانى .

فالحقيقة التى تعلو على خصومات التاريخ أن التصوف والفقه توأمان متلاصقان لا يعيش أحدهما بغير الآخر . ووجهان لفكرة واحدة هى الإسلام الذى لا تكمل معانيه تشريعا وخلقا وروحا وجداً إلا باتحادهما .

حتى ليقول أحمد بن حنبل : من تصوف ولم يتفقه فقد تفسق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق .

ويقول الأستاذ آدم متز فى كتابه — الحضارة الإسلامية فى القرآن الرابع الهجرى — :

« رغم خصومة المتصوفة والفقهاء نجد بين العلماء كالشافعية مثلا كثيراً من الصوفية ، وهذه حقيقة واقعة ، ولقد كانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحا فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت أعظم القوى الدينية فى ذلك العهد » .

ثم يقول :

والحركة الصوفية فى القرنين الثالث والرابع أوجدت فى الإسلام ثلاثة مبادىء أثرت فيه تأثيرا كبيرا وهى : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبى محمد صلى الله عليه وسلم . ولا تزال هذه المبادىء

الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيراً فى الحياة الاسلامية ، ولعل هذا التفوق الذى ظفرت به المبادىء الصوفية هو سر خصومة العلماء للمتصوفة ».

ويقول الشعرانى فى المتن :

« واعلم يا أخى أن غالب الانكار الذى يقع بين الفقهاء والمتصوفة إنما هو من القاصر من كل منهما ، وإلا فالكامل من الفقهاء يسلم للعارفين والعارفون يسلمون للفقهاء ، لأن الشريعة جاءت على مرتبتين . تخفيف وتشديد ولكل من المرتبتين رجال فى حال مباشرتهم للأعمال ، فمن قوى منهم خوطب بالتشديد ، ومن ضعف خوطب بالتخفيف والأخذ بالرخص فكما أن موسى عليه السلام كان على هدى من الله فكذلك الخضر عليه السلام ، ولهذا سلم موسى للخضر آخر الأمر لما علم أن للشريعة مرتبتين : مرتبة خاصة بعامة الناس ، ومرتبة خاصة بالعارفين ولا اختلاف فى الجوهر بينهما ».

فقهاء عصر الشعرانى

سر الخصومة إذن بين الفقه والتصوف كما يقول المستشرق آدم متز هو التنافس على النجاح بين الجماهير . أوكما يقول الشعرانى « إن الجهل هو الذى يحرك الخصومة » .

والجهل والصراع على الدنيا كانا طابع الفقهاء أو أكثرهم فى عصر الشعرانى ، ولهذا واجه الشعرانى أكبر المعارك التى عرفها التاريخ بين الفقهاء والمتصوفة .

جاء الشعرانى والأزهر فى عصر من عصور جموده وانحداره ، فقد خبأت تلك الشعلة المتقدة التى ظلت تضىء فى الازهر قروناً متعاقبة . وانطفأت المصابيح التى كان الازهر يفخر بها ويباهى والتى كانت السمع والبصر للعالم الإسلامى .

جاء الشعرانى والازهر يعيش داخل كتب الشروح والحواشى التى ألفت فى عصور الجمود الفكرى والبلادة الذهنية . ويقتات على موائد هذا الماضى من غير أن يكون له تفكير أو رأى أو ما يشبه التفكير والرأى .

كان العصر الذى يظل الازهر هو عصر الشروح والحواشى التى لا تنتهى إلى غاية ولا تهدف إلى فكرة محددة . فكان العلماء يتناولون المتن الذى وضع من قبل فيضيفون له الشروح والتعليقات . ثم يأتى بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق وهكذا حتى يخرج الكتاب عن موضوعه بل كثيراً ما تحولت الشروح والحواشى إلى موضوعات لا تمت إلى الاصل بسبب بل لا تمت إلى العلم بنسب .

ولهذا ساد الأزهر ركود علمى لم يعرفه من قبل وتحول الأزهر إلى مدرسة للفلسفة والجدل حول تفريعات وافتراضات فقهية أبعد ما تكون عن جوهر الفقه وروحه .

وبذلك قضى الفقهاء على الروح الإسلامى الذى قام فى الأزهر لإعلاء كلمته واكتفوا بالشرح والاعراب ودراسة أوجه القراءات القرآنية وحيل الفقهاء الشرعية .

وجاء الشعرانى وهو ليس منهم يقرع أسماعهم بالقارعة الكبرى ويهاجمهم فى جمودهم المقدس ويزلزل مآذن الأزهر فوق رؤوسهم ويؤلب الجماهير عليهم ويدفعها إلى نقدهم والخروج من سلطانهم .

ناعياً عليهم ابتعادهم عن الأخلاق الدينية فضلا عن العلم ، وتخليهم عن فضائل النفس وطهارة القلب ، مذكراً إياهم بالآية القرآنية (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) .

ثم يقارن الشعرانى بين طريقتهم فى العلم وبين طريقة التصوف وبين موقفهم من القرآن الكريم وموقف المتصوفة فيقول :

(فالمتصوفة علموا أن المراد من العلم وتلاوة القرآن الاتعاظ والزجر والتخويف وأنهم يسألون عن كل مسألة علموها ولم يعملوا بها

ولذلك كان أهل الله غائبين عما يقصده غالب القراء بقراءتهم لما هم فيه من الخشوع عند التلاوة فلم يبق متسع لسواه . فلم يشغلوا أنفسهم بالقراءات والاختلاف فيها لأن فيها يضيع العمر ، والاتعاظ يحصل برواية أبى عمرو مثلا ولم يقدر أحد من السلف أن يقرأ بجميع هذه الروايات .

فرقة تمد وفرقة تفخم وفرقة ترقق وغير ذلك من وجوه الأداء الذى برع فيه رجال الأزهر .

بل كانوا علماء لله وبالله عاملين صائمين قائمين زاهدين خائفين فلم يكونوا مقتصرين على حفظ المسائل فقط بل كانوا عاملين بها .

لم يصرفوا حياتهم فى علم القراءات ووجوهها وإنما اتجهوا بقلوبهم إلى ما فى القرآن من مواعظ وتهديدات وتخويفات وآيات بينات) .

ويضرب الشعرانى لذلك مثلا فيقول :

« كالذى أرسل إليه السلطان كتاباً يأمره وينهاه بأمور كثيرة فأخذه وقبله وصار يدرس ألفاظه ليلا ونهارا بالمد والأمالة والتفخيم والترقيق ثم أرسل إليه السلطان ينظر ما فعل فى الأوامر والنواهى فوجده لم يفعل شيئاً منها وهو على هذه الحالة ، فهل هذا مراد السلطان ، وهل هذا فعل من له قلب أو عقل [1] ؟

ثم يقول الشعرانى متهكما بهم لأنهم يدرسون ولا يعملون :

« وهل يقول للملكين فى القبر وللزبانية على جهنم : دعوه لأنه كان يحفظ أبواب المعاملات أو يحفظ أبواب الفقه والنحو والاصول على ظهر قلبه أو يقرأ بالمد والامالة والتفخيم والترقيق كلا والله لا يكرم بشىء من ذلك إنما يكرم بالتقوى والعمل الصالح ومعرفة الله عز وجل وكف الاذى عن جميع الآنام ومن شك فى ذلك فسيراه يقينا [2] .

ولقد خصص الشعرانى الفصول الطوال فى كتبه للحملة على الفقهاء الجامدين بل خصص كتباً كاملة لهذا الغرض مركزاً حملته الكبرى على الجانب الاخلاقى الايمانى الذى فقد فى الازهر .

يقول المستشرق — فولرز فى دائرة معارف الدين والاخلاق « إن

---

(١) آداب العبودية ص ٩٣ .

(٢) آداب العبودية ص ٩٧ .

الشعرانى فى كتابه البحر المورود كان جريئاً فى مهاجمة الفقهاء والتنديد بطمعهم وزهوهم والتشهير بجشعهم وتهافتهم على الوظائف » .

ويقول — نيكلسون — إن الشعرانى كان لسعة علمه بالدين يحارب الفقهاء بسلاحهم ولذلك نجح فى حملته التى تركت أكبر الآثار » .

وحملة الشعرانى على الفقهاء من رجال الأزهر الذين لم يتخلقوا بالآداب الإسلامية ، ولم يقوموا بواجبات العلم الدينى . ولم يتفقهوا حقاً روح الفقه الإسلامى تشغل جانباً كبيراً فى جهاده فى سبيل بناء الفكر الإسلامى من جديد

وهى حملة نشأت عنها أحداث كبرى أثرت إلى أبعد مدى فى حاضر الأزهر فى أيامه وما تطور إليه بعد ذلك .

فقد انقسم الأزهر إلى فريقين : الفريق الأول يناصر الشعرانى ويؤيده ويدعو بدعوته ويطالب الأزهر بتحقيق رسالته . أما الفريق الثانى فقد أعلنها خصومة مرة حادة أحاطت بالشعرانى ولاحقته حياً وميتاً .

بل لقد كانت حملته سبباً فى تلك الشائعات الكاذبة التى أحاطت بالشعرانى ولم تفارقه إلى يومنا .

بل أخطر من هذا كانت السبب المباشر لمؤامرة طالما أصابت رجال التصوف ، وهى مؤامرة تشويه كتب الشعرانى بالدس والتزييف فيها .

ولا عجب فى هذا فقد زيفوا كتباً على الشعرانى فى حياته . وزيفوا مقدمة لبعض كتبه بين سمعه وبصره مما سنعرض له بالتبيان والتفصيل .

ثورة الأزهر
على الشعرانى

نظر الفقهاء إلى الشعرانى : نظرتهم إلى زنديق مارق ، فقد تجرأ على قداستهم واستطال على مكانتهم . وتهكم بعلومهم ومعارفهم .

وأخطر من هذا أنه انتزع زعامة الجماهير من أيديهم وظفر وحده دونهم بالكلمة النافذة والمكانة العالية لدى الأمراء والملوك فى مصر واستانبول معاً .

واذن فالحرب بينهم وبينه من جانبهم ، معركة على الحياة ، بل معركة على البقاء ، ومعارك البقاء لا تعرف اللين ولا الهوادة بل هى الحرب الشاملة بكل ما فيها من قسوة ، وبكل ما تملك من أسلحة كريمة وغير كريمة .

والفقهاء دائماً فى حروبهم مع المتصوفه ومع غير المتصوفة ممن يدخلون فى دائرة المنافسة : يستعملون سلاحا رهيبا أمتحن على التاريخ فأثبت كفاءته وأثبت أنه السلاح الحاسم القتال .

وهذا السلاح ، هو سلاح التكفير والمروق من الدين . والدين لديهم مرن مرونة عجيبة ، مرونة تسمح بأن يقدموا الدليل على كفر من أبغضوا ، ويقدمون نفس الدليل على إيمان من أحبوا ، والسر كل السر فى التأويل اللولبى المطاط ؛ والتلاعب البارع بالألفاظ والمقدسات .

وأعجزهم مع الشعرانى حتى هذا الدليل المطواع . فالشعرانى كما قدمنا كان صوفياً على الجادة الوسطى والنهج المحدد كالصراط ، لا يسبح السبح الفلسفى ، ولا يرسل الكلم المجنح . ولا يعرف اللفظ الذى يحمل الوجهين

ولا يطلق قلمه فى مقامات الفناء واستغراقات المحبة وسبحات الوجد ،

وإذن فيلجأوا إلى الدس فى كتبه ، وليعمدوا إلى الافتراء ونسبة ما لم يقل إليه .

ومهدوا لمعركتهم بالتحالف مع أدعياء التصوف من جهلة الأميين المارقين لأنهم وإن كانوا خطراً على الدين والأخلاق ، فلا خطر منهم على العلماء والفقهاء .

وثارت الفتنة الكبرى . وأعلنت الحرب فى الأزهر على الشعرانى فزيفوا مقدمة كتابه « كشف الغمة » وضمنوها كفريات سخيفة لا تصدر من عاقل أو مؤمن .

ودسوا فى كتابه « البحر المورود » ـ وهو الكتاب الذى هاجمهم فيه ـ تعاليم تخالف ظاهر الكتاب والسنة ، بل دسوا عليه وجوهاً من العبث لا تتفق مع وقاره وصلاحه ، وضروباً من الأعمال الماجنة الساذجة لا تليق بعلمه ومكانته وأرسلوا هذه الكتب المزيفة إلى الحجاز وتركيا لمكانة الشعرانى فيهما ، بعد أن أذاعوها فى مصر والأزهر .

ثم لجأوا إلى السلاح الآخر الذى يتقنه الفقهاء والذى برعوا فيه مع التاريخ وهو تحريض الولاة والحكام على المتصوفة ، لحرضوا سلطان مصر وخليفة تركيا على الشعرانى بدعوى خطورته على الأمن والنظام والدولة والسلطان والخليفة .

يقول الشعرانى : [١]

« وعما من الله به على صبرى على الحسدة والأعداء لما دسوا على فى كتبى

---

(١) المنن الكبرى جزء ٢ ص ١٩٠ .

كلاماً يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون على زوراً وبهتانا ومكاتبتهم فى لباب السلطان ونحو ذلك .

واعلم يا أخى أن أول ابتلاء وقع لى فى مصر من نحو هذا النوع . أنى لما حججت سنة سبع وأربعين وتسعمائة زور على جماعة مسئلة فيها خرق لإجماع الأئمة الأربعة وهى أنى أفتيت بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة . قالوا وشاع ذلك فى الحج وأرسل بعض الأعداء مكاتبات بذلك إلى مصر ، فلما وصلت إلى مصر حصل فى مصر رج عظيم حتى وصل ذلك إلى أقليم الغربية والشرقية والصعيد وأكابر الدولة بمصر ، فحصل لأصحابى غاية الضرر ، فارجعت إلى مصر إلا وأجد غالب الناس ينظر إلى شذراً فقلت ما بال الناس فأخبرونى بالمكاتبات التى جاءتهم من مكة » .

ثم يقول الشعرانى :

« ثم أنى لما صنفت كتاب البحر المورود فى المواثيق والعهود وتسارع الناس إلى كتابته غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض أصحابى واستعاروا منه نسخة وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة . ومسائل خارقة لاجماع المسلمين ، وحكايات سخريات عن جحى وابن الراوندى وسبكوا ذلك فى غضون الكتاب فى مواضع كثيرة . ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها سوق الكتبيين فى يوم السوق وهو مجمع طلبة العلم . فنظروا فى تلك الكراريس ورؤا اسمى عليها فاشتراها من لا يخشى الله ثم داروا بها على علماء الجامع الأزهر فوقع بذلك فتنة كبيرة . ومكث الناس يلوثون بى فى المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة » .

ثم يقول الشعرانى :

« إن عليا باشا الوزير نقم على بعض المباشرين وعزم على قتله وفيه

خطلع بعض العلماء يشفع فيه فلم يقبل فأتوا إلى فطلعت للباشا فأكرمنى وقبل شفاعتى . وقال لى لا تكلف خاطرك قط إلى طلوع القلعة وأرسل لنا ورقة فقط فبلغ ذلك الحسدة فاجتمعوا وزيفوا على مسائل فى العلم كاذبة ، وأضافوا إليها أموراً منفرة لعلى باشا ثم رفعوها إليه . فلما قرأها قال : أما المسائل المتعلقة بالشريعة فذلك راجع إلى العلماء ، وأما غير ذلك فلا أقبله فيه أبداً ، وإنما رجعت فى أمره إلى قلبى . فأرسلوا إليه قصة ثانية وثالثة فمزقها وشاع فى مصر أن الباشا يحب فلانا . فقال الحسدة قد صار أهل مصر مع الشعرانى وكذلك الوزير فاكتبوا فيه قصة ترسل لباب السلطان .

فكتبوا فيه قصة خلاصتها أن شخصاً فى مصر قد ادعى الاجتهاد المطلق وكثرت أتباعه ويخاف على المملكة منه والمسئول من صدقات مولانا السلطان نفيه من مصر .

ورشوا بعض الوزراء ليحملها إلى باب السلطان فحملها إليه وقيض الله لى الشيخ عبد اللطيف أمين الدين فنق عنى كل هذا وقال : إن القصة كلها زور على الرجل الصالح » .

محاولة قتل الشعرانى

فشلت مؤامرة الفقهاء لدى الوالى ولدى الخليفة ، كما فشلت حملة الافك والدس والتشهير داخل الأزهر وخارجه .

فقد انتصر للشعرانى فى الأزهر طائفة من أئمة العلم وأولى المكانة فى الدين فى طليعتهم شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، وشيوخ المذاهب الأربعة فى الأزهر الفتوح الحنبلى ، وناصر الدين اللقانى ، وشهاب الدين أحمد ، وشهاب الدين الرملى .

كما استطاع الشعرانى أن يظهر للجماهير براءته مما دس عليه ونسب إليه

بتقديمه لأصول كتبه : فازدادت مكانته لديهم وازدادوا له حباً .

فماذا بقى لخصومه بعد هذا . لقد لجأوا إلى السلاح الثالث والأخير . سلاح الغيلة والقتل . فرصدوا له فى الطرقات من يفتك به . ودسوا له السم كما دسوا بعد ذلك لتلميذه الأكبر « المناوى » وذهب المناوى شهيد تدبيرهم ونجى الله الشعرانى مما دبروا وقدروا .

وأخيراً تحطمت أسلحة خصومه جميعها ولم يتحطم الحقد فى قلوبهم فأتوا أمراً إداً عجباً يدل على المرارة القاتلة التى يحملونها للشعرانى .

لقد أشاعوا نبأ موته كذبا ليذهبوا غيظ قلوبهم .

يقول الشعرانى : وما وقع لى أن بعض الأقران فى الأزهر غلب عليه الحسد حتى أشاع عنى فى الجامع الأزهر وغيره أنى مت . وقال : أخبرنى جماعة ثقات أن فلاناً مات فجأة وأرسل بذلك كتباً إلى دمياط والمحلة والاسكندرية » [1] .

وذهب خصوم الشعرانى . وبقى الشعرانى حياً خالداً فى كتبه وآثاره التى ترشد الناس إلى دينهم وتعلمهم مكارم الأخلاق وترفع بهم إلى محاريب التقوى والإيمان .

---

(١) المنن جزء ٢ ص ٢٠٢ .

الشعرانى وعلماء الكلام والتوحيد

«إن الحقائق لم تدع فى قلوب
العارفين للتأويل بابا»
(الجنيد)

جاء فى كتاب أعلام الموقعين .

« وقد تنازع الصحابة فى كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المسلمين وأكمل الأمة إيمانا ولكن بحمد الله لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة، كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ولم يبدو لشىء فيها ابطالا . ولا ضربوا لها أمثالا ، ولم يدفعوا فى صدورها وأعجازها ، تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم »

ذلك هو نهج صحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه،الذين تأدبوا بأدب رسول الله الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه .

لا يعرفون جدلا ولا حواراً فى أسماء الله جل جلاله وصفاته . ولا يقرون بحثاً فلسفيا فى القضاء والقدر ، ولا يرضون عن نزاع يقوم حول نسبة الأفعال إلى الله أو نسبتها إلى عباده .

فان كل هذه المسائل من علم الله الذى لا تدركه العقول، وعلم الله الذى اختص به لا مجال للعقل البشرى فيه ، ولا ينبغى التطلع إلى أسراره وخوافيه

فاذا حاول العقل البشرى أن يتخطى حدوده ضل وفسق عن أمر ربه وألقى بنفسه إلى تيه لاهدى فيه ولا نور ولا دليل مبين .

وهذا هو ما حدث لكل الفرق الإسلامية التى حاولت أن تجادل فى علم الله، وأن تتطاول إلى القدس المغيب ، لتدرك أسرار القضاء والقدر ،

أو لتهتدى إلى حقائق الذات والصفات ، وأفعال العباد ومقام العبد منها وأثر الله جل جلاله فيها .

ضلت هذه الفرق ولم تهتد لأنها حاولت أن تنال الاعلى بالأدنى ، وأن تلمس السر الإلهى بمداركها البشرية .

وضل مع هذه الفرق المنطقيون ورجال الكلام وعلماء التوحيد ، لأنهم افترضوا للايمان وابتكروا للمعرفة صوراً وألواناً لا يقوم الإيمان إلا بها ، ولا تكمل المعرفة إلا بحدودها .

وهى صور وألوان ابتدعوها وافترضوها لايقرها القرآن ولا تعرفها السنة . بل ولم يعرفها صحابة رسول الله ولم تجمل بعقولهم وإنما تسربت إلى الفكر الإسلامى من الفلسفة اليونانية الوثنية الملحدة .

يقول الصلاح الصفدى فى شرح لأمية العجم : إن المأمون لما هادن صاحب جزيرة قبرص كتب يطلب منه خزانة كتب اليونان وكانت عندهم مجموعة فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فجمع الملك خواصه من ذوى الرأى واستشارهم فى ذلك فكلهم أشار بعدم تجهيزها إليه إلا بطريق واحد فانه قال جهزها إليهم فادخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها .

ويقول ابن الجوزى فى تلبيس ابليس (١)

« وكيف لا يذم الكلام وقد أفضى بالمعتزلة إلى قولهم — إن الله عز وجل يعلم جمل الأشياء ولا يعلم تفاصيلها — وقال جهم . علم الله وقدرته وحياته محدثة ، وقال أبو على الجبائى ، وأبو هاشم ومن تابعهما من البصريين . المعدوم شىء وذات ونفس وجوهر وبياض وصفرة وحمرة ، وإن البارى سبحانه وتعالى لا يقدر على جعل الذات ذاتا ، ولا العرض

(١) ص ٨٣ .

عرضا ، ولا الجوهر جوهراً ، وإنما هو قادر على إخراج الذات من العدم إلى الوجود » .

وقال النظام « إن الله عز وجل لا يقدر على شيء من الشر وإن ابليس يقدر على الخير والشر » .

ويقول أبو الفرج معقبا على تلك السفسطة الجدلية الفارغة « أعوذ بالله من نظر وعلوم أوجبت هذه المذاهب القبيحة » .

وكان أبو الوفا بن عقيل يقول : أنا أقطع أن الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن . وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر ، فبئس ما رأيت » .

لقد دفع رجال الكلام وعلماء المنطق والمتأثرون بهم من المعتزلة وغيرهم بالأمة الإسلامية إلى شكوك ومجادلات وضروب من البحث العقيم باعدت بينهم وبين الايمان ، وباعدت بينهم وبين روح الاسلام وباعدت بينهم وبين العبادة لله ، والعمل الصالح للحياة .

ووقف المنصورة وحدهم على الجادة الكبرى ، والطريقة المثلى ، يؤمنون بالقدر كما جاء به القرآن وكما علمهم الرسول ، ويؤمنون بأسماء الله جل جلاله وصفاته المقدسة كما أسماها وكما وصفها القرآن وكما نطقت بها السنة ، من غير تأويل ولا تعليل ولا تعطيل ولا تمثيل ، لأن الايمان يجب أن يكون بما أنزل الله من الألفاظ والمعاني ، لا بما أوله العقل ، وابتدعه التصور ، وتخيله المنطق .

ويقول محي الدين « ومن العجب ان الله تعالى يخبر بشيء عن نفسه فى كتابه المحكم فيأتى الانسان بعقله القاصر ، فيقول إن عقلى يرد ذلك وفكرى

لا يحتمل ذلك وإنما يجب التأويل ، وليس عاقبة هذا التأويل إلا أن يصوغوا من خيالهم وتفكيرهم خالقاً غير ما فى كتاب الله » [١] .

ويقول الامام الغزالى « إن من أشد الناس غلوا واسرافا طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لا يعرف الكلام معرفتهم . ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التى حرروها فهو كافر .

لقد ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولا وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين » [٢] .

ويقول الحلاج « من لا يعرف شعرة من بدنه كيف تنبت سوداء أم بيضاء كيف يعرف مكون الأشياء . ؟ ومن لا يعرف المجمل والمفصل ولا يعرف الآخر والأول ، والتصاريف والعلل ، والحقائق والحيل ، لا تصح له معرفة من لم يزل » .

ويقول الشعرانى « ومما من الله به على حفظى عن الخوض فى معانى آيات الصفات وأخبارها من منذ وعيت على نفسى ، وقل من سلم من مثل ذلك ، وهذا من أكبر الذنوب التى يقع فيها العلماء ولا يشعرون .

ترى أحدهم يخوض فى الكلام على الذات وينسى ما كلف به من الزهد والورع وجهاد النهار وقيام الليل والخوف من الله تعالى ونحو ذلك . حتى كأن الاسلام لديهم محض كلام من غير عمل .

وكان يقول « جميع المعبرين والمؤولين والمتكلمين فى علم التوحيد لم يبلغوا عشر معشار معرفة ادراك كنه حرف واحد من حروف الهجاء » .

ويقول الشعرانى

« ومما من الله به على إيمانى بأن أفعال العباد خلق الله تعالى فى حال

(١) الفتوحات الجزء الأول .

(٢) كتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة ص ٧٩ .

إضافتها إلى العباد معا فى آن واحد ، وهو من أصعب الأمور لأنه إيمان بطريقتين متناقضتين ، فاشهد بعين بصيرتى فى مثل قوله تعالى — وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى — ان الرمى لله تعالى فى حال كونه للعبد لا على التعاقب ، ويحتاج صاحب هذا المشهد إلى عينين ينظر بهما إلى النسبتين حتى يخرج عن الحيرة فان صاحب العين الواحدة لا يقدر على الخروج من الحيرة فى هذه المسئلة أبدا .

وقد حبب إلى أن أوضح لك هذه المسئلة بما لا تجده فى كتاب من كتب المتكلمين فأقول وبالله التوفيق .

اعلم يا أخى أن العقل يقصر عن فهم مسألة خلق الأفعال من غير اشكال ولا يخرجك عن الاشكال فيها إلا التسليم المطلق بما قال الحق ، أو أن تترق فى المواد الكونية وأنت صاعد حتى تنظر إلى الحق تعالى بقلبك وهو يخلق المخلوق الأول الذى لم يتقدمه مادة ، فانك تجد الحق تعالى فاعلا وحده لا شريك له ، ثم تنزل فى الفروع إلى أسفل مع مشاهدة سريان القدرة الإلهية فى كل من أضيف إليه فعل من الخلق فتجده لا يقدر على فعل إلا بامداد القدرة الإلهية له .

ومن هنا انفتح باب الاشكال لعدم تخليص الفعل حينئذ فى الشهود البصرى لله وحده ، أو للخلق وحدهم . ووقع الخطأ ، فمن أضاف الأفعال كلها إلى الله تعالى حسنها وقبيحها ، قال له لسان الغيرة الإلهية ، قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ، فان نسبة الأفعال إلى الخلق نسبة إضافة واسناد ، لا نسبة خلق وإيجاد ، ومن أضاف الأمور الحسنة كلها إلى الله تعالى وأضاف القبيحة كلها إلى الأكوان ، قال له لسان الجود الإلهى أيضا ، قل كل من عند الله ، لا تكذيبا له بل ثناء جميلا . كما نضيف نحن ما قبح من الأفعال مما لا يوافق الأغراض ولا يلائم الطبع إلينا

مع علمنا بأن الكل من عند الله . ولكن لما تعلق به لسان الذم قدينا ما ينسب إلى الحق من ذلك بنفوسنا أدبا مع الله تعالى ، كما أننا نضيف ما كان من خير وحسن إلى الله تعالى ونرفع نفوسنا من الطريق حتى يكون الحق تعالى هو المحمود وحده أدبا معه تعالى .

فالذى يجب اعتقاده ، أن الله تعالى خالق أفعال العباد وإنها مكتسبة لهم وان حجة الله تعالى قائمة عليهم وأنه لا يسئل عما يفعل ، ولا يطلب الوصول إلى الغاية فى ذلك فلسنا مكلفين بها مع صعوبة مراقيها .

أجل لسنا مكلفين بالخوض فى كل ما يتعلق بذات الله وقضاء الله وقدره فإن هذه المسائل هى سر الحياة الأكبر ، وسر الحياة لا يعلمه إلا الله فليس لنا من الأمر إلا التسليم والايمان بما أمر الله وبما ورد فى كتاب الله .

عن أبى هريرة قال ، خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا .

وسأل رجل على بن أبى طالب عن القدر فقال . طريق دقيق لا تمش فيه ، فقال يا أمير المؤمنين اخبرنى عن القدر . فقال بحر عميق لا تخض فيه فقال . يا أمير المؤمنين اخبرنى عن القدر . فقال سر خفى لله لا تفشيه ، فقال . يا أمير المؤمنين اخبرنى عن القدر ، فقال إن الله تعالى خلقك كما يشاء أو كما شئت ، فقال كما شاء قال . إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ، قال كما شاء ، قال ألك مشيئة مع الله أو فوق مشيئة الله أو دون مشيئة الله . أما إن قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه وإن قلت دون مشيئته استغنيت عن مشيئته ، وإن قلت فوق مشيئته كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

وبذلك أحال على رضوان الله عليه سائله إلى مجالى القدرة الإلهية ومشاهدها . فكانت تلك الاحالة أبلغ الأجوبة وأعظمها لمن ينشد الايمان واليقين .

وبدون تلك الاحالة لا يفهم القدر . وبدون تلك الاحالة يتحول القضاء والقدر إلى جدل لفظى لا ينبت الايمان ولا يعرف اليقين وإنما يدفع إلى الشكوك الأوهام وإلى ماهو أبعد من الشكوك والأوهام .

الجن والأرواح
والعوالم غير المنظورة

يقول غاندى

« إن العقل شيء عظيم حقا ، ولكنه يصبح غولا كريها إذا أدعى لنفسه أنه قادر على كل شيء ، محيط بكل شيء ، وإن نسبة هذه القدرة إليه نمط رديء من الوثنية ، فالعقل عند هؤلاء العقليين وثن يعبد ، كما يعبد الوثنى حجراً أو نصباً ، ويعتقد فيه أنه إله .

وهذا خطأ الحضارة الغربية الأكبر ، فقد آمنت بالعقل وجحدت ما سواه وعاشت تحت ظلال وثنية عقلية هي أخطر ألوان الوثنيات وأشدها اذلالا وأهدارا للقيم الإنسانية العليا .

والعقل الذى عبدته الحضارة الغربية شيء عظيم حقاً فى عالم الحس والمشاهدة لأنهما مجالا العقل وموضع تجاربه وآياته ، أما ماوراء ذلك فلا شأن للعقل وما ينبغى له .

ولهذا كانت الحضارة الغربية شيء هائل عظيم رهيب فى الماديات وفى كل ما يخضع للحس والمشاهدة ويقوم على البحث والتجربة ، بينما تأخرت وتعثرت تعثراً مضحكا فى المعنويات والاخلاقيات والعبادات ، وفى كافة مايتصل بعوالم الروح والإلهام والوحى والإيمان ، لأنها عوالم فوق الحس والمشاهدة .

والإنسان لو اقتصرت حياته على الحس والمشاهدة فحسب ، لما كان أكثر من حيوان كبير ، لان الحس والمشاهدة هما مرتبة الحيوان الذى لا يصدق إلا ما شاهده بعينه ولا يعرف إلا ما وقع عليه حسه

أما الانسان الذى أسجد الله له ملائكته ونفخ فيه من روحه ، فقد وهب مع النفخة الإلهية خصائص روحية عليا هى سره الأكبر وهى حياته المثلى ، وبتلك الخصائص يدرك الانسان أشياء فوق الحس والمشاهدة ، وبتلك الخصائص ترتفع معارفه فوق معارف الحس والمشاهده إرتفاعا يؤهله لتذوق المعارف الالهية ، وتسمو به إلى جلاء أسرار مكون الأكوان والاطلاع على عجائب ما أبدعت القوة الالهية من عوالم منظورة وغير منظورة .

والعلم المادى الذى تعبده أوربا ومن يعيش فى ظل حضارتها فى أمريكا وآسيا قد ابتدأ نفسه يتنكر للعقل الذى ابتكره وابتدعه ، قدابتدأ يعترف بأن الكون ملىء بأسرار وعلوم ليس فى طاقة العقل أن يدركها لأنها فوقه فلا سبيل إليها إلا بوحى من الله أو بالهام من عالم الروح .

وقف العلامة انشتاين عند درج صغير فى أسفل مكتبه وقال « إن نسبة ما أعلم إلى مالا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتى » .

ويقول العبقرى « نيوتن » لسنا إلا كأطفال فى جزيرة على شاطىء بحر العلم نلتقط ما يقذفه البحر من القواقع على حين أن الجواهر النفيسة فى قعر البحر » .

ويقول النابغة الفرنسى « بيو » إننا لا نشاهد إلا ما يظهر لنا من العلم فى الخارج ، وقد حجب عنا ما هو أعجب وأغرب . لعمرك قل لى من ذا استطاع أن يفهم سر طيران الذباب ؟ وسر ألا عيب الفراش ؟ نعلم شيئاً عن تركيبها الجسمانى وقابليته ، ولكنا عاجزون عن رؤية الحكمة التى أمرت بها ونظمتها ، إنى أمام مشهد الوجود أعتبر نفسى جاهلا » .

ويقول « كاميل فلا مريون » — ماهو الوسيط الذى يتوسط للقوى العقلية فى إنتاج نتيجة مادية ؟ كيف يوصل العصب البصرى صور الأشياء إلى العقل ؟ كيف يدرك هذا العقل ؟ أين مستقره ؟ ما هى الطبيعة ؟

ما هى طبيعة العمل المخى ؟ لن يستطيع أكبر رأس أن يجيب على أحقر أسئلتى ».

تلك أقوال جبابرة العقول فى الحضارة الغربية تبرهن أن نهاية العقل البشرى هى العجز عن إدراك أسرار الكون . وأن أكبر الجهل أن ننكر مافى الكون من آيات الله وعجائب الخلق بدعوى أنها أشياء فوق العقل والتصور .

لابد للإنسان أن يرتد صاغرا ذليلا إلى عالم الإيمان والروح ، أن يرتد مؤمنا بقوة فوق عقله ، وبعوالم فوق ما يدرك بالحس وما يعرف بالمشاهدة « فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » .

اضطررنا إلى هذه المقدمة ، لنبرهن على أن كل ما يتعلق بالعوالم غير المنظورة ، كالجن والملائكة والأرواح يجب أن تخضع عقولنا حيالها إلى ما جاء به الوحى ، لأننا بالعقل وحده نضل فى فهم الروحانيات والغيبيات .

ولنبرهن أيضا على أن الذين هاجموا المتصوفة فى أحاديثهم عن صلاتهم بالجن ، وصلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين ، قد انحرفوا عن الحق ، لأن الأديان السماوية فى جانب المتصوفة لا فى جانب هؤلاء الوثنيين العقليين .

والشعرانى فى طليعة المتصوفة الذين تحدثوا عن صلاتهم بالجن . وعن صلاتهم بأرواح الموتى من الصالحين ، بل لعله أكثر المتصوفة حديثا عن عالم الجن وعالم الروح .

ولهذا كان نصيبه من حملة العقليين ، أكبر من غيره من رجال التصوف الروحانيين .

لقد رموا الشعرانى بالكذب والدجل ، وبالشعوذة وبالشعبية العامية وبالتخريف والتخيل الساذج وما إلى ذلك من نعوت وألقاب يجيدها الذين ألهوا العقل وانكروا مافوق الحس والمشاهدة .

يقول المستشرق العقلي (شاخت) في حديثه عن الشعراني « إننا مع اعترافنا بخصوبة انتاجه نرى ضرورة الاعتدال وعدم الاسراف عند تقدير عقليته ، لأننا نراه يؤمن إيمانا عميقا بالقوى الخفية وما أكثر مزاعمه بصدد ماوقع له مع الأرواح والملائكة والجن والكرامات والخوارق ، فإن كتبه حافلة بهذه المزاعم » .

ويقول المستشرق (ماكدونالد) في الفصل الذي عقده عن اتصال الأولياء بالجن في الاسلام « إن هذه الظاهرة إذا كانت مألوفة في العالم الاسلامي ، فإنها لاتبدوا أوضح مما نراها عليه عند الشعراني الذي كان على إتصال دائم بعالمها الخفي غير المنظور » .

ويجرى الدكتور زكي مبارك مع المستشرقين في الفصل الذي كتبه عن الشعراني في كتابه — التصوف الاسلامي — فيرمى الشعراني بالكذب الساذج ، ويصف عقليته بالعامية ، لأنه تحدث عن الجن وعن اتصاله بهم « .

ويعقد الدكتور توفيق الطويل فصلا في كتابه عن الشعراني تحت عنوان — التفسير السيكولوجي لكذب الشعراني — جاء فيه .

إن ما يرويه الشعراني عن نفسه من اتصال بالأرواح وتعامل مع الجن قد يغري بالشك ويدفع إلى تكذيبه ، كما كان الحال في موقف الدكتور زكي مبارك منه ، ولكن تفهم الشعراني في ضوء المنطق العقلي وحده يبدو لنا ضلالا مبينا لأن الرجل كان طوال حياته يعيش في جو ديني مشبع بالتصوف استمد منه غذاء عقله ، وأشبع به جوع قلبه ، ومن هنا كان لابد من النظر إلى نزعات نفسه وتيارات فكره في ضوء هذا الجو النفسي.

وقد انتهت به حياته إلى إيمان عميق مفرط هيمن على منطق العقل في تفكيره ، وتأدى الاسراف المعن في هذا إلى مايسمه علماء النفس بالمدركات الخاطئة والأوهام المجسمة فتصور وجود أشباح مجسمة لم يكن لها وجود

إلا فى وهمه ، وبهذا انقلبت الحقائق فى نظره أو اختلق الكثير منها اختلاقا فبدت الأشياء التى لا تتضح فى عينه ، أشباحا للجن أو الأرواح ، أو كانت هذه من خلق تصوره لأنها تساير نزعات قلبه ووساوس نفسه وتلتئم مع الجو المعنوى الخفى الذى يستغرقه ومن السهل على من يكون كذلك أن يتمثل الجن فى خاطره فتبدو صورها فى ناظره أو تتحول صور الأشياء إشباحاً للجن والعفاريت .

فإن حدثنا عن وقائع مع سكان هذا العالم الخفى قلنا أنه مخدوع وليس بخداع ولا كذاب وبمثل هذا تفسر أحاديثه عن تعامله مع الجن وأرواح الموتى (١)

والآن فلننظر ما سبب كل هذه الحملة على الشعرانى . روى الشعرانى فى المنن ، أن مؤمنى الجن كانوا يحضرون دروسه العلمية ، وأنهم أحيانا كانوا يدخلون عليه ليلا فى منزله فيصلون معه ويسبحون معه على سبحته ، وأن بعض شياطينهم عابثه يوما أثناء مقامه بمدرسة أم خوند فكان يطفىء مصباحه ويزعج أولاده ، فكمن له حتى إذا ظهر قبض على رجله ، وأخذت رجل الجنى ترق حتى أضحت كالشعرة فى يده (٢)

وأرسل إليه بعض الجن من المشتغلين بالعلم أسئلة فى قرطاس يحمله أحدهم فى فمه وقد تشكل فى صورة كلب أصفر اللون ، وفى مقدمة الأسئلة « ماقول علماء الانس فى هذه الأسئلة المرقومة لأنها أشكلت علينا وسألنا عنها مشايخنا من الجان . فقالوا إن هذا التحقيق لا يكون إلا عند علماء الانس » وقد أجاب عنها الشعرانى فى كتابه القيم « كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان » .

---

(١) الشعرانى للطويل ص ١٥٢ (٢) الجزء الأول من المنن .

هذه هي خلاصة حوادث الشعراني مع الجن فلنعرضها على وجهة النظر الاسلامية لنرى هل تطابق أم تخالف.

والاسلام صريح في وجود الجن وفي أنهم أمم أمثالنا منهم الصالح، ومنهم الشقي، وان طائفة من الجن استمعت إلى القرآن الكريم وآمنت به.

بقي بعد ذلك محور الصراع. وهو صلاتهم بالانسان. وهل هي جائزة أم مستحيلة وهل صاحبها كاذب أم صادق.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

« وكلني رسول الله بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت. فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة مافعل أسيرك البارحة. فقلت يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه قد كذبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود بقول النبي صلى الله عليه وسلم فرصدته، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال دعني فإني محتاج وعلي عيال لاأعود فرحمته فخليت سبيله. فأصبحت فقال لي رسول الله ياابا هريرة مافعل أسيرك البارحة. فقلت يارسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال أما إنه كذبك وسيعود. فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات. إنك تزعم أنك لاتعود. فقال دعني فإني أعلمك كلمات ينفعك الله بهـا، قلت ماهي. قال إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: الله لا أله إلا هو الحي القيوم: حتى تختم الآية فانه لن يزال عليك من الله تعالى حافظ ولايقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله. فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم مافعل أسيرك البارحة. فقلت

يارسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله تعالى بها فخليت سبيله . فقال ما هى قلت قال لى : إذا آويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية - الله لا أله إلا هو الحى القيوم - وقال لن يزال عليك حافظ من الله تعالى حتى تصبح ، ولن يقربك شيطان ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم. أما إنه قد صدقك وهو كذوب . تعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة . قلت لا . قال : ذا شيطان » .

والحديث صريح صراحة لا لبس فيها ولا أبهام فى أن الجنى حادث أبا هريرة وجادله وناقشه وعلمه أيضـــا آيات من القرآن تحفظ الإنسان من الجن .

والحديث صريح أيضا صراحة لا لبس فيها ولا غموض بأن أبا هريرة قبض على الجنى ليرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن الرسول ليسأل أبا هريرة قائلا — ماذا فعل أسيرك البارحة — .

وروى أحمد والترمذى من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال لعائشة أتدرين ماخرافة . إن خرافة كان رجلا من عذرة أسرته الجن فى الجاهلية فمكث فيهم دهراطويلا ثم ردته إلى الإنس . فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من العجائب . فقال الناس حديث خرافة » .

وفى السير أن الشيطان صاح فى عسكر الصحابة يوم أحد . ألا إن محمداً قد مات فترك جماعة من الصحابة القتال فضحك عليهم .

بل إن الفقهاء قد وضعوا لصلات الجن بالإنسان قواعد فقهية وصلت إلى حد أن تناول الفقهاء أحكام الزواج المختلط بين الانسان والجان .

جاء فى حاشية ابن عابدين . بكتاب النكاح « أن الحسن البصرى أجاز التزوج بجنية دون العكس » .

وجاء فى كتاب « أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب » أن الدجال أحد أبويه جنى » .

وفى القرآن الكريم بيانا وإيضاحا . لوحى الشياطين للانس ووحى الإنس للشياطين « شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم لبعض زخرف القول غرورا » .

وفى القرآن أيضا بيانا وإيضاحا لأعمال الوسوسة والصرع والمس التى تترتب على صلة الجن بالإنس .

وجاء فى القرآن الكريم فى قصة سليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات أعملوا آل داود وشكرا وقليل من عبادى الشكور » .

وهى آيات كريمة دلت لا على الصلة بين الإنس والجن فقط . بل على أن الجن قامت بأعمال مادية للانسان ، فصنعت له المحاريب والتماثيل والجفان والقدور الراسيات .

(الجن وتحضير الأرواح)

وقد سئل الامام محمد عبده عن تحضير الأرواح فقال « لقد حضرت فى أوربا مؤتمراً يجمع أكابر هذا الفن فحضرت أرواح كثيرين وبعضهم ممن أعرفه قبل وفاته . ورأيت ذلك مطابقا لما علته عن هؤلاء الناس فسألتهم . وكلهم اتجهوا إلى ليسمعوا سؤالى . فقلت لهم إن رأى فى هذا أنه عمل من أعمال الجن . وناقشتهم مناقشة جـــدية فى هذا الموضوع إلى أن تحديتهم بإحضار روح المصطفى عليه الصلاة والسلام لأسأله عن الأحاديث الصحيحة الواردة عنه ولأتبين بلاغته وفصاحته فى منطقه إذا تكلم فى ذلك الوقت

وكثير من المستشرقين الحاضرين يمكنهم الحكم على ذلك . وليقين بأن النبي محفوظ من أن يتمثل الشيطان بصورته ويؤدى مايؤديه . علمت أنى سأفوز عليهم فلم يلبثوا أن عجزوا جميعاً معترفين بأن هذه روح عالية لا يمكن احضارها ومن ذلك يتبين جليا أن هذا عمل من أعمال الجن . .

وبهذا تتحد الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية مع منطق الواقع والمشاهد فهل بعد هذا بيان لمن ينشد الحق .

وهل خرج الشعرانى فى صلاته بالجن عن نطاق القرآن والأحاديث والواقع المشاهد .

وهل عقلية الشعرانى ساذجة متوهمة كما يقول الدكتور الطويل وكاذبة خادعة كما يقول المستشرقون والدكتور مبارك .

أم أن عقولهم هى الأجدر بهذا الوصف . وإن كانوا أطلقوه فى باطل ونطلقه نحن هنا فى حق صراح .

الشعرانى المفترى عليه

حيا وميتا

يقول الشعرانى . إنه ما كان عظيم قط فى عصر من العصور إلا وكان يلازمه ملازمة الظل خصوم وحسدة ، يملئون الجو حوله صياحا وجدلا ، ويشعلون النار فوق رأسه حقداً وحسداً .

ويستشهد الشعرانى على ذلك بما وقع للأنبياء كافة ثم لكبار الصحابة وعظماء الرجال فى مختلف الأمم والشعوب ، ليبتلى الله عباده وليتميز الخبيث من الطيب ، ولتمتحن الأعواد الانسانية الصلبة ومقدار قدرتها على البقاء والخلود .

وقد أصاب الشعرانى ما أصاب أسلافه من مصابيح الانسانية وأعلام الهدى والإيمان .

فقد ملأ خصومه الدنيا حوله حقداً وحسداً ، وافتراءا وكذبا كما أوضحنا فى الفصول السابقة ، حتى أذاعوا نبأ موته تشفيا وحقداً .

يقول الشعرانى ، وكان حسادى يحرفون عنى مسائل لم أقل بها قط ثم يكتبون بها أسئلة ويستفتون عنها العلماء فيفتون بحسب السؤال ثم يدورون بخطوط العلماء على الناس فيحصل لى من ذلك أجور لا تحصى من كثرة الوقوع فى عرضى بغير حق »[1]

ولا تزال الأجور التى لا تحصى تلاحق الشعرانى فى الدار الآخرة ، فالشعرانى الذى إفترى عليه خصومه فى حياته لا يزال الافتراء يلاحقه ويتابعه وهو فى مقامه عند ربه .

وإن كان خصومه فى حياته دفعهم إلى الافتراء عليه الحقد والحسد ه

(١) الجزء الأول من المنن ص ١٢٢ .

فإن خصومه اليوم يدفعهم إلى الافتراء إما التأثر بما قال أسلافهم القدامى ، وإما الجهل بما قال الشعرانى نفسه .

وهذا باب كبير يكاد يحتاج إلى كتاب خاص ولكننا نجتزئ هنا بمثال واحد من أبشع مانسب إلى الشعرانى .

نسبوا إليه أنه قال فى المنن إنه بنى بزوجته فى قبة البدوى ، وأطلق الدكتور زكى مبارك لسانه وألفاظه الضخمة القاسية تعقيبا على هذه الحادثه البشعة الرعناء .

والدكتور زكى مبارك ومعه رجال الاستشراق قد أخطأوا فى اتهامهم للشعرانى فى البديهيات ، أخطأوا كما يخطىء التلميذ الصغير الساذج فى فهم الكلام الواضح المبين فيحرف الكلم عن مواضعه ويخرج المعنى عن أهدافه ومقاصده

يقول الشعرانى ،ومما وقع لى مع سيدى أحمد البدوى أنه جاءنى ودعانى أيام خروج الناس من مصر إلى مولده . فلما ذهبت إلى (طندتاه) صار كل من دخل القبة يبدأ بالسلام على قبل زيارة الشيخ حتى استحييت منه ، وكانت أم ولدى عبد الرحمن لها معى مدة سبعة شهور وهى بكر . فجاءنى وقال لى إختلى بها فى ركن قبتى وأزل بكارتها ففعلت ، فطبخ لى طعاما وحلوى . فلما رجعت إلى مصر حصل ما أشار به فى تلك الليلة [1]

ذلك قول الشعرانى ، وهو أوضح من فلق الصباح فالقصة كما هو واضح قصة منامية جاءه السيد البدوى فى الرؤيا ودعاه لزيارة مقامه فى طنطا ثم طلب منه فى منام تالى أن يختلى بزوجته التى لم يدخل بها رغم مرور سبعة أشهر على زواجه بها فى ركن قبته ثم يقول الشعرانى فى لفظ عربى مبين — فلما رجعت إلى مصر حصل ما أشار به السيد فى تلك الليلة — أى أن الشعرانى دخل بزوجته فى مصر عقب عودته إليها تنفيذا لما رأى فى منامه .

(١) الجزء الأول من المنن ص ١١٢

وللمنامات عند المتصوفة مقام كبير يحتذون فى ذلك سنة رسول الله صلوات الله عليه فقد جاء فى كتب الصحاح أن النبي كان إذا أصبح يقول لإصحابه «من رأى منكم رؤيا» يعنى أعبرها له .

والشعرانى يقول فى كتبه إنه كان ينبه فى المنام على الأمور التى تقع ، كما كان ينبه على أحواله ومقاماته وذنوبه وأخطائه من باب التأديب والتعليم بالرمز والإشارة .

والشعرانى بنى بزوجته كما يقول ومضى عليها معه سبعة أشهر وهى بكر لم يدخل بها . فنبه مناما على خطئه ووجوب الدخول بها وكان مرشده فى الرؤيا هو السيد البدوى .

أو لعل الشعرانى كان فى حالة نفسية حالت بينه وبين الدخول بزوجته فكان المنام الذى رأى سبباً فى اصلاح تلك الحالة النفسية أو العقدةالنفسية

وعلى أى معنى من هذه المعانى فقد صرح الشعرانى بأنه لما عاد إلى مصر حصل ما أشار به السيد فى المنام . أى أنه دخل بزوجته فى مصر لا فى قبة البدوى .

وبذلك تنهار تلك الأقصوصة المسرحية التى نسجوها حول الشعرانى . وما أكثر ما نسجوا حوله من أقاصيص وأساطير .

صلاته بالملوك والوزراء

يحدثنا الجبرتى، وابن أياس، والشعرانى، وعلى مبارك، وهم مؤرخوا مصر فى العصر التركى عن لون الحياة فى المدن والقرى المصرية، وعن لون الحكم الذى فرضه الأتراك على مصر حديثاً عجباً يخلع القلب ويذهل العقل

فلقد خضعت مصر خلال الحكم التركى لأقسى أنواع العذاب البربرى الهمجى إذتولى أمورها حكام طغاة جبابرة، وزاد من بشاعة جبروتهم جهلهم الفاضح، واستهتارهم بكل المقدسات الانسانية.

كانت مصر خلال هذا الحكم العسكرى الدكتاتورى تعانى الظلم والفساد ونشأ عن الظلم والفساد فى البيئات الحاكمة انتشار الجهل والفقر والمرض فى ربوع الأرض الطيبة والوادى ذى الزرع والخير العميم.

واختل الأمن وفقد الناس السلامة فى كل شىء. فما بقى للمال أو الدين أو الحياة قيمة أوكرامة.

يقول الجبرتى «وقدكان من عادة أمرق العسكرية التركية أن تشارك أصحاب الحرف فى مكاسبهم، فيمضى الجندى منهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويعلقه فى المحل ويصبح شريكه فى أرباحه»[1].

ثم يقول واصفا للفوضى العامة الشاملة «وكان التاجر لا يكاد يستقر فى متجره حتى يسمع الناس يتصايحون ويتسابقون فى العدو ويسرعان مايحسبها فتنة قد شبت نارها فيبادر باغلاق محله ويلوذ فرارا».

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٤

ويقول صاحب المناقب متحدثاً عن الفلاح والقرية المصرية « وكان الفلاح فى قريته معرضاً لنوع اخر من الفزع والجزع ، كان القضاة والكشاف يحطون عليه ويطالبونه بدفع الضرائب والأدوات فإن عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالا بالمقارع والكسارات وعصر الرأس وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس »[1]

ويقول ابن أياس واصفاً للباشرين الذين أذلوا الشعب المصرى ونهبوا أمواله : « كان المباشرون كالملوك يتصرفون فى أمور الدولة بما يشاءون وليس على يدهم يد »[2].

وكان أخطر ما عانى الشعب المصرى فوق ذلك أن العلماء كما يقول المؤرخون مشوا فى ركاب الطغاة من الحكام والولاة وغدوا لهم بطانة وحاشية فزادوهم ظلما وعدوانا ، وأسبغوا على ظلمهم وعدوانهم ظلا كاذباً من الدين ! ! ؟

وبقى المتصوفة وحدهم يحملون مشاعل الجهاد ، ويصرخون فى وجه كل جبار : قف من أنت .

ورجال التصوف عرفوا دائماً بانتفاضهم على الظلم والظالمين ، لأنهم ارتفعوا بحياتهم فوق الرغبة والرهبة ، وسموا بإيمانهم فوق ما يذل الناس من شهوات وفوق ما يخيف الناس من جبروت .

أو كما يقول على مبارك متحدثاً عن موقف المتصوفة من جبروت الولاة الأتراك : ولكن هذا الجبروت كان ينحل أمام زعماء المتصوفة .

---

(١) المناقب الكبرى ص ١٢١ .

(٢) ابن إياس جزء ٣ ص ١٨١ .

ولقد تركزت قوة التصوف خلال هذا العهد فى زعيم التصوف الشعرانى وبذلك تمثلت فى الشعرانى مقاومة الشعب المصرى وتمرده على الظلم والظالمين

واستطاع الشعرانى بإيمانه وشخصيته وجهاده أن يمثل سلطة الشعب وأن يرد العدوان عنه وأن ينتزع له حقوقاً من ظالميه .

سئل غاندى عن السر فى أن الإنجليز لم يستطيعوا أن ينالوا منه أو يخضعوه لسلطانهم مع ضعفه وقوتهم فقال : يرجع ذلك إلى سببين ، الأول أنى لا أملك شيئا يستطيع الإنجليز أن يأخذوه منى فحرصا عليه أخضع . والثانى أنى لا أطمع فى شىء يستطيع الانجليز أن يمنعوه عنى وطمعاً فيه أخضع » .

وكذلك كان موقف الشعرانى من جبابرة الأتراك ، لا يمد عينه إلى ما لديهم من متاع وجاه ، ولا يحرص على شىء فى الحياة .

ويحدثنا الشعرانى عن نفسه بأنه كان لا يقبل مالا أو هدية من حاكم ، فإذا ألحوا عليه تقبل المال بيده وطوح به على مرأى منهم ومشهد من الناس .

بل لقد رفض أن يلتمس له أحد الوزراء معونة الخليفة فى تركيا وكانت فى ذلك الوقت شرفاً أى شرف وأملا أى أمل .

وكان الشعرانى فى تواضعه يتكبر على المتكبرين ، ويتعالى على هؤلاء الجبارين ليحفظ كرامة إيمانه وكرامة شخصه وكرامة وطنه .

قال له الوزير الأعظم على باشا عند ما عزم على الرحيل إلى تركيا : إننا مقربون إلى الخليفة فهل لك حاجة عنده ؟ فأجابه الشعرانى فى عزة المؤمن : ألك حاجة عند الله ؟ إننا مقربون إلى حضرته .

وبتلك العزة الإيمانية يرى الشعرانى أن الملوك فى طاعته لأنه فى طاعة الله وفى مصالح عباده ، يقول الشعرانى :

« تشفعت عند السلطان الغورى ، والسلطان طومان باى وخاير بك وغيرهم من بشاوات مصر فقبلوا شفاعتى وذلك معدود من جملة طاعة الملوك لى » [١].

وبتلك العزة الإيمانية غدا الشعرانى الحامى الأول عن الشعب المصرى ، أو كما يقول : « ومما من الله به على كثرة قبول شفاعتى عند الأمراء ولا أعلم الآن أحدا فى مصر أكثر منى شفاعة عند الولاة ، فربما يفنى الدست الورق فى مراسلاتهم فى حوائج الناس فى أقل من شهر » .

وارتفعت مكانة الشعرانى بدفاعه عن الشعب وبإيمان الملوك والوزراء بأنه رجل فوق الاغراء وفوق المادة وفوق وظائفهم وفوق ما يستعبدون به الناس وقد امتحنوه سرا وجهرا فأرسلوا له الأموال والخيرات فردها عليهم فأعادوها سرا فازداد اعتصاما وإصرارا .

وعرضوا عليه الوظائف والهبات من الخليفة فأبى أن يأخذ مالا من حاكم أو حتى أن يأكل من طعامه . لأن فى ذلك ما يخدش عقيدته ، وما يخدش رسالته .

وطارت شهرة للشعرانى بأنه رجل كرامات وآيات وأن من يعصى له أمرا ينكب فى ماله أو جاهه أو حياته .

ويحدثنا صاحب المناقب عن إيمان جبابرة الترك من الولاة والوزراء بكرامات الشعرانى وقوته فيقول : فقد ترتب على هذا الخوف أن الولاة كان إذا زارهم الشعرانى أسرعوا إليه يقبلون يديه ويتبركون به ويجلسون على الأرض بين يديه ويسارعون إلى قضاء أوامره وشفاعاته .

---

(١) المنن جزء ٣ ص ٢٣٦ .

ويقول لنا صاحب المناقب أيضا إن الأمراء كانوا يلتمسون منه أن يوصى بهم خيرا أينما اتجهوا فى أرجاء الامبراطورية التركية حتى إنه كتب مرةً يوصى العجم والروم بالأمير جانم الحزاوى ، كما كان يولى القضاة والمحتسبين وكبار الموظفين ويرجع إليه فى كل أمور الدولة صغيرها وكبيرها .

بل إن على مبارك ليحدثنا عن خوف الامبراطورية التركية كلها من الشعرانى ومسارعتها إلى إرضائه إتقاءاً لغضبه ،

ويكفى للدلالة على مكانة الشعرانى ما يرويه لنا أيضا على مبارك من أن أحد الولاة تعرض لذرية الشعرانى بعد وفاته . فتسامع السلطان فى تركيا بأنباء هذا العدوان مع أن أحداً من ذريته لم يرفع شكواه إليه . فأرسل السلطان بكف العدوان عنهم وهدد من ركب رأسه فى مناوأتهم باعتباره طريد القانون وأنذر بأهدار دمه جزاء عناده .

حتى الموت لم يستطع أن يحجب نفوذ الشعرانى . لأنه نفوذ قام على الإيمان والعقيدة . وكل ما يتصل بالإيمان والعقيدة خالد لا يفنى .

الزعيم الروحي ـ والشعبي

فى الشعرانى تمثلت خصائص الزعيم الشعبي المكافح على أكمل ما تكون هذه الخصائص من قوة نفسية متمردة على الظلم ، وقوة بيانية تثير العواطف وتلهب الحس ، وفوق هذا وذاك الحاسة الشعبية الساحرة التى تشعر بأحاسيس الجماهير وتتفاعل معها حتى كأنها منها ، وهى تقودها وتهيمن عليها .

وفى الشعرانى تمثلت خصائص الزعيم الدينى الملهم على أوضح ما تكون تلك الخصائص من قوة إيمانية لا يرهبها الظلم ولا ينال منها الاغراء ، وقوة أخلاقية لا تلين للشهوات ولا تميل مع الأهواء ، وفوق هذا وذاك السحر الصوفى الأخاذ الذى يضفى على صاحبه هالات القداسة وأضواء الحب والإجلال .

وقل بين رجال التاريخ من جمع بين هاذين اللونين من ألوان الزعامة ، فلا غرو إذا رأينا الشعرانى يظفر بين معاصريه بالقيادة العامة التى لا تطاولها زعامات ولا تدنو منها مقامات .

ولقد كان موقف الشعرانى فى وجه القوة التركية ممثلا فى الولاة والوزراء البداية الحقيقية لبناء الشخصية المصرية المستقلة التى توارت طويلا تحت حكم المماليك والأتراك حتى وجدت فى الشعرانى حجرها وصاحبها ، فتركزت حوله آمالها وأمانيها وأخذت تتكون حوله شيئا فشيئا أولى المجموعات الشعبية المصرية بخصائصها ومميزاتها لتأخذ دورها التاريخى الذى تجلى مشرقا غلابا خلال حملة نابليون على مصر وما تلاها من أحداث .

وحول الشعرانى أيضاً تركزت الآمال فى نهضة دينية تعيد للدين شبابه الأول وقداسته السابقة وحرارته الإيمانية التى أضعفتها أحداث التاريخ ، ونال منها جمود العلماء وجهل الجماهير .

وكان من زكاة هذه الزعامة الشعبية أنه أعرض عن الوظائف الحكومية لأنه ثائر ولأنه زعيم قائد، والوظائف الحكومية دائما تنال من ثورة الزعيم كما تنال من مكانته .

وكان من علامات النجاح لهذه الزعامة الدينية أنه ابتعد بزاويته عن الأزهر وبذلك أنقذها من الجمود الفكرى والجدل اللفظى الذى خيم عليه فى تلك العصور ، كما حرر أتباعه وتلامذته من أساطير أدعياء التصوف ومباذلهم ليرتفع بهم إلى جوهر الدين وليعود بهم إلى صفائه الأول وانطلاقه العلمى وجهاده العملى وغايته المقدسة التى تهدف إلى خير الإنسانية بتلقينها أسمى المبادىء الأخلاقية وأنبل الفضائل الاجتماعية .

وجهاد الشعرانى الدينى فى سبيل تحرير العقول الإسلامية من الجمود والأساطير لم يشغله يوما عن جهاده الشعبى فى سبيل إنقاذ الجماهير من ظلم الولاة واستعباد الأمراء .

وبذلك ربط الشعرانى بين الدين والدنيا، وأحيا الصلة التى لا تنفصم بين رسالة الإسلام التعبدية العلمية ورسالته السياسية الشعبية .

هاجم الفقهاء وأدعياء التصوف باسم الدين وباسم الجماهير الاسلامية ، وكافح الولاة والأمراء باسم الدين أيضا ولحساب الكتلة الشعبية ، لأن هدف المجاهد الإسلامى والقائد الشعبى هدف موحد مشترك .

يقول الشعرانى « هاكم السادة العلماء الواحد منهم عدة وظائف ، هو واعظ فى المسجد، وموظف فى الحكومة وطبيب للعائلة ، ولا يقوم بإحدى هذه الوظائف على الوجه الذى يرضى الله . بل هى سبيل للمال الحلال أو الحرام، لقد عزمنا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لنتفرغ لخدمة الناس كافة »

ولا ينسيه هذا النقد العنيف للعلماء الذين كان واجبهم الأول هو إرشاد

الناس لاجمع المال من أوجهه الحلال والحرام، أن يوجه قلمه إلى نقد الظالمين من الحكام الذين أحالوا حياة الفلاح المصرى إلى جحيم لا يطاق. يقول الشعرانى :

«كان الفلاح عند موته فى أحلك الأيام السابقة يترك شيأ من الدراهم لأولاده ولكنه الآن بفعل الظالمين من الولاة لا يستطيع إلى ذلك سبيلا، هو يبيع الحاصلات والبقرة والثور لتسديد ما عليه من الضرائب وإذا لم يتمكن من تسديد ما عليه سجن مع زوجته وأولاده».

ومن أجل تلك الصورة الصارخة لحياة الفلاح المصرى المؤلمة نذر الشعرانى نفسه للجهاد فى سبيل المظلومين كلية. أو كما يقول الشعرانى «لقد عزمنا نحن المتصوفة على رفض الخدمة الحكومية لنتفرغ لخدمة الناس كافة

ولقد ظل الشعرانى إلى آخر نفس له فى الحياة مجاهداً لا تلين له قناة ولا تخفض له راية ولا تزلزله أحداث ولا ترهبة قوى، إنه مجاهد فى سبيل الله فلا يخشى سواه. شعاره دائما كلمته الخالدة «لو انفض الناس جميعا من حولى، واهتزت شعرة منى فقد كفرت بالله».

الشعرانى

رجل المثالية الخلقية

وبعد فإن كان الشعرانى كزعيم شعبى ، وكمجاهد صوفى قد شاركه فى الجهاد والزعامة كثيرون من رجال التاريخ ، فإن الشعرانى كما أومن ينفرد بخلق إنسانى رحيم كريم مثالى لا أظن أن غيره يبلغ مبلغه عمقاً وإيماناً .

كان الشعرانى بحق رجل الأخوة الإنسانية على أدق معانى تلك الأخوة ولهذا كان يشارك بوجدانه بل بكل أحاسيسه المظلومين والمحرومين يشقى لشقائهم ويتألم لآلامهم : يقول الشعرانى « إنى لا أشعر بشعور المعــذبين والمظلومين حتى لكأن كل عذاب أو ظلم وقع بأحد من الناس وقع بى »

وكان الشعرانى يرى أن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا شارك الناس كافة فى أحزانهم وآلامهم لأن الإنسانية وحدة متماسكة خيرها مشترك وعذابها مشترك يقول :

« من ضحك أو استمتع بزوجه أو لبس ثوبا مبخراً أو ذهب إلى مواضع المتنزهات أيام نزول البلاء على المسلمين فهو والبهائم سواء »

وكان الشعرانى رحيما بالناس ، ورحيما بنوع خاص بالعصاة والمذنبين لأنهم أشد الناس ضعفاً وأحوجهم إلى العطف والنصح والرحمة . يقول متحدثا عن مبادئه

« ثم سترى لعورات الناس وعيوبهم ، ورحمتى بالعصاة حال تلبسهم بالمعصية فإنهم أشقى الناس حينئذ »

ويقول « ثم كثرة رفقى ورحمتى لمن شكا إلى كثرة محبته للمعاصى لأنه مريض . ثم غيرتى على أذنى ان تسمع زورا ، وعينى أن تنظر محرما ولسانى أن يتكلم باطلا »

وتمتد رحمة الشعرانى إلى الحيوان الأعجم لأنه ضعيف مسخر للإنسان « ثم كثرة شفقتى على دابتى وكراهتى أن أحمل سوطا » .

بل لقد كان الشعرانى يرى أن العبادة لا تصلح إلا بصلاح القلب ونقاء الأخلاق فكان لا يقوم إلى الصلاة إلا إذا فتش قلبه هل فيه غل أو حقد أو حسد أو نميمة أو شهوة صغيرة أو كبيرة بل كان يستحى أن ينام وفى قلبه شيء من هذا لأن النوم رحلة الروح إلى الملأ الأعلى

ويستطرد قائلا « ثم أخذى كل كلام وعظت به الناس فى حق نفسى أولا وفى حق الناس ثانيا واستغفارى من ذلك ثالثا ثم عفوى العام عن كل مسيء إلى ، ثم كثرة اهتمامى بحمل هموم عدوى قبل اهتمامى بهموم صديق »

ويسمو الشعرانى فى أدب النفس ويرتفع فى معارج الأخلاق فيقول « ومما أنعم الله به على عدم خروجى من بيتى إلا إذا علمت من نفسى القدرة بإذن الله على هذه الثلاث خصال : تحمل الأذى عن الناس ، وتحمل الأذى منهم ، وجلب الراحة لهم »

فإذا كملت هذه الثلاث ارتفع الشعرانى درجة بل درجات فيضع « الطليسان » على وجهه ليكف بصره عن فضول الناس .

تلك الكلمات المضيئة ، الكلمات الروحية الصافية التى تتلألأ بالنبل والشرف ، هى بعض خلق الشعرانى ، وإنه لخلق رفعه درجات ودرجات فوق علمه وزعامته . . .

طه عبد الباقى سرور نعيم
٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٧٢
١٩٥٢/١٢/٨

بعض مصادر الكتاب

المنن الكبرى — الشعرانى
الطبقات الكبرى — «
العهود المحمدية — «
تنبيه المغترين — «
اليواقيت والجواهر — «
كشف الغمة — «
إحياء علوم الدين — الغزالى
التفرقة بين الإيمان والزندقة — «
اللمع — الطوسى
القوت — أبو طالب المكى
الرسالة القشيرية — القشيرى
الطبقات الكبرى — للمناوى
خطط المقريزى — المقريزى
الفتوحات المكية — محى الدين
تلبيس إبليس — ابن الجوزى
مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون
أعلام الموقعين — ابن القيم
الرسائل — ابن تيمية
دائرة المعارف الإسلامية
شرح لامية العجم — الصلاح الصفدى
غاندى — العقاد
محى الدين بن عربى — طه عبد الباقى سرور
التصوف الإسلامى - زكى مبارك
التصوف فى مصر - توفيق الطويل
الشعرانى — توفيق الطويل
صفوة الصفوة — طبع الهند
الطواسين — ماسنيون
كشف الظنون — حاجى خليفة
وفيات الأعيان — ابن خلكان
صحيح البخارى — البخارى
صحيح مسلم — مسلم
الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى — آدم متز
حلية الأولياء — أبو نعيم
مفتاح السعادة — طاش كبرى زاده
حجة الله البالغة — الدهلوى
مجموعة تراث الإسلام
الخطط التوفيقية — على مبارك
بدائع الزهور فى وقائع الدهور — ابن إياس

محتـــويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	بين يدى الطبعة الثانية
٦	الأفق الأعلى
١٧	نشأته وحياته
٢٢	الشعرانى فى القاهرة
٢٦	الشعرانى طالب العلم
٢٨	الشعرانى فى طريقه إلى الله
٣٣	شيوخه فى الطريق
٣٧	الشعرانى والخواص
٤١	الشعرانى فى مدرسة خوند
٤٣	الشعرانى والخليفة
٤٦	زاوية الشعرانى
٥١	إلى الملأ الأعلى
٥٢	رسالة التصوف
٥٩	التصوف الإسلامى والمعارف العالمية
٦٢	الطريق الربانى والمعارف الإلهية
٦٩	هل تتعارض المعارف الصوفية مع القرآن والسنة
٨٠	التصوف المفترى عليه
٨٩	التصوف برىء من وحدة الوجود
٩٣	مقام الفناء وأخطاء الحلوليين
٩٩	مقام الفناء وابن تيمية
١٠٣	جهاد الشعرانى
	السبحات الفلسفية والتصوف
١١١	الشعرانى وأدعياء التصوف
١٢٤	موقف الشعرانى من المتصوفة العاطلين
١٢٨	الشعرانى وفقهاء الأزهر
١٣٥	فقهاء عصر الشعرانى
١٣٩	ثورة الأزهر على الشعرانى
١٤٤	الشعرانى وعلماء الكلام والتوحيد
١٥١	الجن والأرواح والعوالم غير المنظورة
١٥٨	الجن وتحضير الأرواح
١٦٠	الشعرانى المفترى عليه
١٦٣	صلاته بالملوك والوزراء
١٦٨	الزعيم الروحى والشعبى
١٧١	الشعرانى رجل المثالية الخلقية

مطبعة نهضة مصر